

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثامن والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثامن والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٨٨

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ) : أدعوكم إلى السلامة من العذاب بإيمانكم .

(النَّارِ) : العذاب بالنار ، والمراد أسبابه من الشرك والغيّ والمعاصى .

(الْعَزِيزِ) : الغالب القاهر .

(الْغَفَّارِ) : واسع المغفرة .

(لَا جَرَمَ) : لَا رد وإبطال لدعوتهم الرسول إلى عبادة الأوثان ، وجَرَمَ فعل ماض بمعنى حَقَّ وثبت ، كما فى قول الشاعر :

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُبَيْدَةَ طَعْنَةً ... جَرَمَتْ فزارةُ بَعدَها أَنْ يغضبوا

أي : حَقَّ لفزارة أن يغضبوا بعد هذه الطعنة .

وفاعل جرم فى الآية مصدر مؤول من أن وما دخلت عليه ، أى : حقَّ وثبت كون ماتدعوننى إلى عبادته لَا يصح أن يدعى لَا فى الدنيا ولَا فى الآخرة .

وقال الفراء : معنى (لَا جَرَمَ) فى الآية : لابد ولا محالة ، وعلى هذا تكون « بُدّ » اسم لا النافية للجنس ، وخبرها مصدر مؤول مما بعدها ، وهذا هو معناها الأصلى ، فلمَّا كثر

استعمالها صارت بمنزلة « حقًّا » فلذلك يجاب عنها باللّام كما يجاب عن القسم ، ألا ترى أنهم يقولون : لَاجَرَم لآتينك . انتهى كلام الفراء بتصرف .

(مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ) : مرجعنا إلى الله بالموت .

(الْمُسْرِفِينَ) : المشركين ، وكل من غلب شرُّه خيره فهو مسرف .

التفسير

٤١ - (وَيَاقَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى النَّارِ) :

هذه الآية الكريمة من كتاب الله نداء من جملة النداءات التى تكررت فى هذه السورة ، وهيمنت على جوها ، وتنوعت بها أساليب التنبيه ، وألوان التحذير والتخويف، تذكر بالنعم وتحذر من وقوع النقم . كما فى قوله -تعالى- : (يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِن جَآءَنَا) .

كما تحذر من الفتن المهلكة والعقوبات المدمرة التى وقعت بالأمم السابقة فأبادتها كما فى قوله : (وَقَالَ الَّذِيٓ آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) .

أو تذكر بيوم القيامة وما يحتويه من أهوال وشدائد ، كما فى قوله : (وَيَاقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) أو تنبه إلى أن الدنيا متاع سريع الزوال ، وأن الآخرة هى دار الدوام والاستقرار . كما فى قوله :(يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) .

كما تَنْعَى على الكافرين والمشركين انتكاس الطبع ، وسوء السلوك . إيقاظًا لهم من سِنة الغفلة ، واهتمامًا بالمنادى ، ومبالغة فى توبيخهم على مـــا قابلوا به دعوته .

واقترن النداء فى الآية بالعطف لأنه للموازنة بين الدعوتين : دعوته لهم إلى دين الله الذى ثمرته النجاة ، ودعوتهم له إلى اتخاذ الأنداد الذى عاقبته النار ، وذلك لتحقيق أنه هاد وأنهم مضلون ، وأن ما عليه هو الهدى ، وما هم عليه هو الضلال .

والمعنى : وياقوم إنِّى لأعجب من أمركم ، فأخبرونى كيف هذه الحال التى أنتم معى عليها ؟ أدعوكم إلى الخير ، ومسالك النجاة ونعيم الجنة ، وتدعوننى إلى الهلاك ، ومهاوى الجحيم .

وفى ندائهم بياقوم وتكرار ذلك مع كل نداء مزيد من التلطف معهم . والإشفاق عليهم ، والتحنن فى دعوتهم إلى ما فيه خيرهم ونجاتهم ، لانتزاع شفقتهم وطاعتهم حتى ينزلوا على نصحه ، ويستجيبوا لدعوته ، ولا يتهموه كما فعل إبراهيم - عليه السلام - فى نصح أبيه ، حيث ناداه متلطفًا بقوله : « يَـٰٓأَبَتِ » .

٤٢ - (تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) :

هذه الآية تفسير وبيان للآية السابقة ، أى : تدعوننى لأنكر وحدانية ربى ، وأُشرك به آلهة أُخرى باطلة زائفة لم يقم دليل على أُلوهيتها .

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) معناه : وأنا أدعوكم إلى عبادة الإله القادر الغالب على أمره ، الغفار لذنوب التائبين .

وخص هذان الوصفان : (الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) لاقتضائهما جميع الصفات، لما فيهما من الدلالة على الخوف والرجاء من الله ، فإنهما مناسبان لحالهم .

٤٣ - (لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) :

لفظ (لَا) فى قوله : (لَا جَرَمَ) رد لما دعاه إليه قومه ، وجرم بمعنى حق ، وتقدم باقى الكلام عليها فى المفردات .

والمعنى : حقَّ وثبت بطلان ما تدعوننى إلى عبادته من الأَصنام ، فليس لها دعوة ترجى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فهى لا تضر ولا تنفع ، وأن مرجعنا إلَى الله الذى أدعوكم إلى عبادته وأن المسرفين بعبادة غيره هم أصحاب النار لا ينفكون عنها ، ولا يخفف عنهم من عذابها .

(فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(أُفَوِّضُ أَمْرِى) : أردّ أمرى وأسلمه إلى الله ليعصمنى .

(فَوَقَاهُ) : حفظه ونجاه .

(حَاقَ) : نزل ولزم وأحاط ..

(سُوٓءُ الْعَذَابِ) : العذاب السَّيِّئ من الغرق والنار ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف .

(السَّاعَةُ) : القيامة .

التفسير

٤٤ ـ (فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) :

هذا آخر مايقوله الناصح بعد أن يستكمل كل أساليب النصح ، ويستجمع جميع عبارات التحذير والتخويف ، يقول ذلك إعذارًا لنفسه ، وتهديدًا مُغَلَّفًا بأُسلوب النصح والإشفاق .

والمعنى : فسيذكر بعضكم لبعض عند مواجهة العذاب ومجابهة الحساب يوم القيامة ما دعوتكم إليه ونصحتكم به ، وحذرتكم مخالفته ، فلم يكن منكم إلَّا الإسراف فى العناد ، والإصرار على الكفر ، والإفحاش فى التهديد ، ولم يكن لى بعد هذا إلَّا أن أردّ أمرى إلى الله ،

وأسلم نفسى إليه ، يحفظنى من كيدكم ، ويقينى من سيئاتكم ، إنه بصيرٌ بالعباد مطلع على أحوالهم التى من جملتها حالى وحالكم ، لايغيب عنه شأن ، ولاتخفى عليه خافية .

٤٥ - (فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ الْعَذَابِ) :

الضمير فى قوله - تعالى - : (فَوَقَاهُ) لموسى - عليه السلام - .

والمعنى : فَوَقَى الله موسى ومن معه ، وحفظه من فرعون وبطشه ، وردّ كيده ومكره إلى نحره ، وأنزل به وبقومه العذاب البالغ أقصى درجات السوء فى الدنيا بالموت غرقًا ، وفى الآخرة بالنار إحراقًا ، وتلك عقبى الظالمين ، ومثوى المتكبرين المتجبرين ، ولم يصرح باسم فرعون امتهانًا له ، وإشعارًا بأصالته فى المسئولية .

٤٦ - (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) :

هذا كلام مستأنف مرتب على سؤال تقديره : كيف حال آل فرعون بعد غرقهم؟ فقيل : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا . . .) الآية .

وفى هذه العبارة غاية التهكم بهم وامتهانهم ، حيث بَدَّلَهُم الله باسترواحهم بأنفاس الصباح الندية ، وأَنْسَام العِشاء الرخية - بَدلهم بذلك - العَرْضَ على النار غدوًّا وعشيًّا فى قبورهم ما دامت الدنيا حتى إذا قامت القيامة قال الله لخزنة جهنم : أدخلوا فرعون وآله المتجبرين أشد العذاب فى جهنم فى مقابل شدة جبروتهم .

وتحديد الوقتين لأنهما الوقتان المعتادان للاسترواح والراحة عند أهل الترف ، فيكون ذلك أنكى فى التهكم والسخرية ، وأجلى فى تصوير العذاب والامتهان ، ويكون ما بين الوقتين متروكًا لأمر الله - تعالى - يجرى عليهم عذابًا آخر أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يراد بذكر الوقتين التأبيد ما دامت الدنيا جريًا على الأسلوب العربى فى التعبير أحيانًا عن جميع الوقت بذكر الطرفين كما فى قول الخنساء :

يُذَكِّرُنى طُلوع الشَّمس صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْس

ومثل هذا فى القرآن الكريم كقوله تعالى : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) أى : دائما فى كل وقت .

والظاهر هو المعنى الأول ، وهو عرضهم على النار فى وقتى الصباح والمساء ، فهو المناسب لحديث الصحيحين البخارى ومسلم عن ابن عمر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشىّ ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » . ومن أجل ذلك قيل بعذاب البرزخ .

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(يَتَحَاجُّونَ) : يحاجّ بعضهم بعضًا ويتخاصمون .

(الضُّعَفَآءُ) : الأتباع .

(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : للمتبوعين والسادة .

(تَبَعًا) : جمع تابع كخدم وخادم – أو على تقدير : ذوى تبع .

(مُغْنُونَ) : حاملون أو دافعون .

(حَكَمَ) : قضى وفصل .

التفسير

٤٧ - (وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَـٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ) :

المعنى : واذكر يأيُّها الرسول لقومك فيما تذكر لهم من أحوال هؤلاء المشركين ، ومايجرى عليهم من أجل شركهم وعنادهم - اذكر - إذ يتخاصمون فى النار ويحاجّ بعضهم بعضًا بعد دخولها واصطلاء جحيمها ، فيقول الأتباع الضعفاء المغلوبون للسادة القادة الذين استكبروا عليهم وسخروهم لمصالحهم وفتنوهم فى دينهم - يقولون لهم - متهكمين شامتين : إنكم كنتم تستعلون علينا فى الدنيا وتزعمون لأنفسكم السلطان ، والغلبة والقهر ، وإنا كنا لكم تبعًا فيما تدعوننا إليه ،وتأمروننا به ، فهل أنتم حاملون عنَّا الآن أودافعون بعض ما نعانيه من هول النار وعذابها بسبب طاعتنا لكم واتباع أمركم ؟

٤٨ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) :

أى : قال السادة الذين استكبروا جوابًا للضعفاء الأتباع الذين سألوهم تهكمًا أن يحملوا عنهم أو يدفعوا بعضًا من العذاب الذى هم فيه - قال الذين استكبروا :

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا) أى. نحن وأنتم فى النار سواء ، فكيف نغنى عنكم ونحن لا نقدر أن ندفع عن أنفسنا شيئًا من العذاب .

(إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) أى : إن الله القادر على الحكم المالك لكل شىء قد قضى وفصل بين العباد ، فأدخل أهل الجنّة الجنة ، وأهل النار النار ، وقدَّر لكل منَّا ومنكم عذابًا لا يدفع عنه ، ولا يتحمله عنه غيره .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(خَزَنَةُ جَهَنَّمَ) : القُوام على تعذيب أهلها .

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالمعجزات والآيات .

(بَلَىٰ) : نعم جاءونا .

(ضَلَالٍ) : بطلان وضياع .

(الْأَشْهَادُ) : جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، والمراد : الأنبياء والحفظة .

(اللَّعْنَةُ) : الإبعاد والطرد من رحمة الله .

التفسير

٤٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ) :

المعنى : وقال الذين انتهى أمرهم بدخول النار من الضعفاء والمستكبرين جميعًا حين استقروا فى الجحيم ، ولفهم اليأس ، وضاقت بهم الحيل ، وأعيتهم العلل - قالوا - لخزنة

جهنم القُوّام بتعذيب أهل النار : ادعوا ربكم يخفف عنّا شيئًا من هذا العذاب الذى نعانيه ، أو يدفع عنّا يومًا من أيام العذاب لعلّنا نسترد به قوتنا ، ونجمع فيه طاقتنا ، فيقوى احتمالنا له ، وصبرنا عليه .

وهو قول يمثل أقصى درجات المهانة والذل ، فإنه ليس أذل على النفس ، ولا أشد وقعًا من أن تبتغى الرحمة من القائم على تعذيبها ، أو ترجو الإشفاق من جلادها ، ولهذا اقتصروا فى طلبهم على تخفيف قدر يسير ، أو وقت قصير .

٥٠ - (قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) :

المعنى : قال خزنة جهنم لأهل النار الذين طلبوا منهم الدعاء بتخفيف العذاب عنهم - قالوا لهم - إلزامًا وتوبيخًا على إضاعة أوقات الدعاء ، وتعطيل أسباب الإجابة : ألم تُنَبَّهوا إلى هذا ولم تك تأتيكم رسلكم فى الدنيا بالحجج الواضحة ، والآيات البينة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما ينطق بذلك - قوله تعالى - : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا . قَالُوا بَلَىٰ »[1] أى : قال أهل النار لخزنة جهنم : نعم جاءونا ودعونا ونصحونا وأعذروا بالحجج والبراهين فعارضناهم وكذبناهم .

(قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) أى : قال خزنة جهنم لهم إمعانًا فى التوبيخ والتيئيس : إذ كان هذا شأنكم فادعوا أنتم ؛ فإن الدعاء مِنّا مستحيل لمن يفعل فعلكم وما دعاؤكم مهما تضرعتم وطال دعاؤكم إلّا فى بطلان وضياع .

ووضع الكافرين موضع ضميرهم بيانًا لمقتضيات البطلان، وقصد التوبيخ والامتهان ، وقوله - تعالى - :

(وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) : يحتمل أن يكون من جملة الكلام المقول على لسان الخزنة، وأن يكون من كلام الله - تعالى - إخبارًا منه لرسوله - صلى الله عليه وسلم -

(١) سورة الزمر من الآية : ٧١ .

٥١ ـ (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) :

هذه الآية استئناف كلام مسوق من جهة الله ـ تعالى ـ لبيان ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى ، وهو فرع من فروع حكم كلى تقتضيه الحكمة هو أن شأننا المستمر أننا ننصر رسلنا وأتباعهم الذين يؤمنون بهم ، ويصدقون دعوتهم فى الحياة الدنيا وننتقم لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبى .

(وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) : ويوم القيامة عند جمع الأولين والآخرين ، وشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ ، وأداء الأمانة على وجهها ، وعلى الكفرة بالتكذيب والجحود والعناد .

ونصرهم فى الدنيا واقع لا شك فيه ولا سبيل إلى تخلفه ، وقد يتأخر حدوثه بعض الوقت لحكمة يعلمها الله ـ تعالى ـ .

٥٢ ـ (يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) :

المعنى : أنَّ يوم يقوم الأشهاد هو يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، أى : يوم لا يكون للظالمين معذرة أصلًا يعتذرون بها لانقطاع حجتهم ، ونفاد حيلتهم ، أو يوم يعتذر الظالمون فلا تقبل منهم معذرة ولا تدفع عنهم من العذاب قليلًا أو كثيرًا ، وتكون لهم اللَّعنة ، والطرد من رحمة الله ، ولهم الدار التى يسوؤهم عذابها ويشقيهم المقام فيها . وهى جهنم .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(الْهُدَى) : ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع .

(الْكِتَابَ) : التوراة .

(الْأَلْبَابِ) : العقول ، جمع لُبّ .

(يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ) : يخاصمون فيها بالباطل ويجحدون .

(سُلْطَانٍ) : برهان وحجة .

التفسير

٥٣ – ٥٤ : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

جاءت هذه الآية بعد الآية السابقة بمثابة تمثيل لنصرة الله –تعالى – لأنبيائه ، لأن تأييدهم بالمعجزات وإنزال الكتب عليهم نوع من نصر الله لهم ، بجانب كونه هدى وذكرى لأقوامهم .

والمعنى : ولقد كان من جملة نصرنا لرسلنا وصدق وعدنا لهم أن آتينا موسى ما يهتدى به من المعجزات الهادية إلى الحق ، وأورثنا قومه بنى إسرائيل التوراة هداية وتذكرة أو هاديًا ومذكرًا لذوى العقول السليمة والأفهام الخالصة من شوائب الوهم ، والصافية من غيوم الشكوك والأهواء .

٥٥ – (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) :

المراد من ذنبه – صلى الله عليه وسلم– ما خالف به الأَوْلَى بالنسبة لمقامه ، وإن لم يكن ذنبًا فى حقه وحق غيره فى الواقع[1] .

والمعنى : إذا علمت ذلك –أيها الرسول– وسمعت ما قصصناه عليك من أن نصرة الرسل تكفل بها الله ووعد بها ، فَأَخْلِدْ إلى الصبر على أذى قومك فإن العاقبة لك ، وما سبق به

(١) وقيل : أمره – صلى الله عليه وسلم– بالاستغفار تعبدى لرفع درجاته وهضم نفسه، وليصير الاستغفار سنة لأمته .

الوعد من نصرتك ، وإعلاء كلمتك حق وصدق فانتظره ولا تستعجله ، وأقبل على التقوى ، واستدرك بما حدث منك مما يخالف الأولى بالنسبة لك - استدركه - بالاستغفار ودم على عبادة ربك تسبيحًا وتحميدًا وثناء عليه بالعشى « آخر النهار » ، والإبكار « الدخول فى الصباح » بخاصة ، أو فى جميع الأوقات ، والمراد من التسبيح والتحميد معناهما المعروف ، وقيل : المراد بهما الصلاة ، فعن قتادة : ركعتان بكرة - صُبْحًا - وركعتان عشيًا - عصرًا - لأن الواجب بمكة كان ذلك . وبنحوه قال الحسن : ركعتان بكرة وركعتان عشيًا ، وحكى فى البحر عن ابن عباس أن المراد الصلوات الخمس .

٥٦ - (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

المعنى : إن الذين من شأنهم أن يخاصموا فى آيات الله البينات ، وبراهينه الواضحات ويجحدونها من غير أن يقوم جدلهم فيها على علم ، أو يستند إلى برهان ودليل ، لا يفعلون ذلك عن رأى سديد ، وليس فى صدورهم من ذلك إلا كبرٌ على الحق ، وتعظُّم عن التعلُّم ، ما هُم ببَالِغِى هذا الْكِبْر الذى يُدْفَعُ به الحق ، أو ما هُم ببالغى ما أرادوه من جدلهم من إبطال آيات الله ، لأن الله - تعالى - أذلَّهم ، وجعل لك الغلبة عليهم فاستسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجًا .

وقوله - تعالى - : (فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) توجيه للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمر له أن يلتجئ إلى الله من كيد من يحسده ، ودفع من يبغى عليه .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى : إن الله - تعالى - هو عظيم السمع لأقوالهم وجدالهم ، واسع العلم بأحوالهم وأفعالهم .

(لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ) : الغافل والمستبصر .

(السَّاعَةَ) : القيامة .

(لَا رَيْبَ فِيهَا) : لا شك فى وقوعها وحدوثها .

(دَاخِرِينَ) : صاغرين أذلَّاء .

التفسير

٥٧ ــ (لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

لما كان البعث من مواضع جدلهم الواسع ، ومكابرتهم الزائفة ناسب أن تأتى هذه الآية بعد آية الجدل تحقيقًا للحق ، وتبيينًا لأشهر ما يجادلون فيه جهلًا وعنادًا من غير اعتماد على علم أو استناد إلى برهان، على منهاج قوله ــ تعالى ــ : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم[1] » .

(١) سورة يس من الآية ٨١ .

والمعنى : لخلق السموات والأرض على اتساعهما ، وامتداد طولهما وعرضهما ، وحكمة نظامهما ومايحتويان من كائنات عظيمة ، ومايختلف عليهما من تغاير أطوار ، وتباين أحوال ، ومايقع فيهما أو عنهما من أحداث - لخلق هذا كله - أكبر وأعظم من خلقه - تعالى - الناس ، لأن الناس بالنسبة إلى تلك الأجرام العظيمة والأحداث الهائلة كلا شىء ، والمراد : أن من قدر على خلق ذلك فهو - سبحانه - على خلق ما لا يعدُّ شيئًا بالنسبة إليه بَدْءًا وإعادة أقدر وأقدر ، وقوله - تعالى - : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ولكن أكثر الناس من الكفرة والمشركين لايعلمون شيئًا من هذا ، ولا يتدبرونه تدبرًا يهديهم إلى الحق ، ويردهم إلى الإيمان والتصديق ، فهو الذى تقتضيه الحكمة اقتضاءً ظاهرًا ولكنهم لا يفقهون .

٥٨ - (وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ) :

نفت الآية السابقة العلم عمّن عطل عقله ، وجمد فكره فلم ينظر فى آيات الله نظرة تأمُّل ، ولم يعمق التفكير فى قدرته الظاهرة فى مخلوقاته ، وجاءت هذه الآية تبرز هذا المعنى بالقياس بين الأعمى والبصير ، وبين المحسن والمسئ ، ليستبين الحق من الباطل .

والمعنى : وما يستوى الأعمى الذى لا يبصر مباهج الحياة ووشيها وجمالها ، ولا يعرف عدوه من صديقه ، ما يستوى هذا الأعمى مع البصير الذى له عينان تجولان فى أرجاء الكون ، وتنطبع على ناظريهما آياته ، ويشاهد بهما البساتين وزهورها وثمارها ، ويتمتع بصفحات الجمال فى كل الكائنات علويها وسفليها ، ويرى صديقه فيلاقيه ، ويبصر عدوه فيتقيه ، وإذا كان هذان لايستويان فى الاستفادة من آيات الحياة الدنيا والشعور بجمالها وجلالها ، والاستمتاع بها ، فالأعمى محروم والبصير يتقلب فى النعيم ، وإذا كان هذان لا يستويان فمثلهما المؤمن الذى يعمل الصالحات فى دنياه ، فينعم فى الدنيا بحياته ويخلد فى الجنة بعد مماته ، فلا يستوى مطلقاً مع الكافر المسىء إلى نفسه وإلى ربه فى حياته ، الخالد فى النار بعد مماته (قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ) فلا تدركون الحقائق على وجهها .

وفى الآية لمحات :

١ – عدل عن التقابل الظاهر فى قوله – تعالى – : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ) فلم يقل : والمحسن والمسىء كما فى قوله : الأعمى والبصير ، إشارة إلى أن المؤمن أصل فى الإحسان وعَلَمٌ له .

٢ – قدم الأعمى لمناسبة العمى ماقبله من نفى العلم ، وقدم الذين آمنوا بعد عكس ما قبله لمجاورة البصير وشرفه ، على أن الافتنان فى الأسلوب قد يقتضى طرقاً أخرى ، فيقدم ما يناسب الأول ويؤخر ما يقابل الآخر كقوله – تعالى – : « وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ[1] » أو يؤخر المتقابلان كما فى قوله – تعالى – :

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ[2] » .

٣ – وأعيدت (لا) مع المسىء تذكيرا للنفى ، لما بينهما من الفصل بطول الصلة ، ولإظهار المقصود بالنفى من الفرق بين المحسن والمسىء .

٥٩ – (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّارَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ) :

أى : إن القيامة آتية واقعة لا شك فى حدوثها ، ولا ريب فى وقوعها البتة ، لوضوح ظواهرها ، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ولكن أكثر الناس من الكفار والمعاندين لايؤمنون بحدوثها ، ولا يصدقون بوقوعها لقصور أنظارهم ، واستيلاء الأوهام على عقولهم .

٦٠ – (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) :

هذه الآية الكريمة توجيه من الله – عز وجل – لخلقه أن يضرعوا إليه بالدعاء ، ويجأروا له بالرجاء ، تعظيما لقدرته واعترافا بعجزهم وحاجتهم إلى عطائه وفضله .

---

(١) سورة فاطر الآيات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

(٢) سورة هود من الآية : ٢٤ .

والمعنى : وقال ربكم ادعونى ، أى : اعبدونى ، والدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن الكريم ، ويدل عليه قوله - تعالى - : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) والاستجابة : الإثابة ، وفى تفسير مجاهد : « اعبدونى أثبكم » وعن الحسن وقد سئل عنها : « اعملوا وأبشروا فإنه حقٌّ على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله » وعن الثورى أنه قيل له : ادع الله - تعالى - فقال : « ترك الذنوب هو الدعاء » وفى الحديث : « إذا شَغَل عبدى طاعتى عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وروى النعمان بن بشير - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ : « الدعاء هو العبادة » وقرأ هذه الآية . ويجوز أن يراد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ، ويراد بعبادتى دعائى لأن الدعاء باب من أبواب العبادة ، ومن أفضل أبوابها ، يصدق ذلك قول ابن عباس - رضى الله عنه - : « أفضل العبادة الدعاء » .

وعن كعب : أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلاَّ نبياً مرسلا ، كان يقول لكل نبى : « أنت شاهدى على خلقى » وقال لهذه الأمة : « لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ[1] » وكان يقول : « ما عليك من حرج » وقال لنا : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ[2] » وكان يقول : « ادعنى أستجب لك » وقال لنا : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ[3]) .

وعن ابن عباس : « وحدونى أغفر لكم » وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ، ثم للعبادة بالتوحيد .

وقوله - تعالى - : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي . .) الآية ، معناه : إن الذين يستعلون عن عبادتى ويتعاظمون على توحيدى وطاعتى أو على دعائى والتضرع إلىَّ سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين لا يغنى عنهم تكبرهم من دخولها ولا يدفع عنهم من عذابها .

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .
(٢) سورة المائدة من الآية : ٦ .
(٣) سورة غافر من الآية : ٦٠ .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۘ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(لِتَسْكُنُوا فِيهِ) : لِتُخلِدوا فيه إلى السكون والراحة .

(مُبْصِراً) : مضيئاً صالحا للحركة والعمل .

(تُؤْفَكُونَ) : تصرفون عن عبادة الله .

(يَجْحَدُونَ) : ينكرون ويُكَذِّبون .

التفسير

٦١ ـ (اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) :

تنتقل الآيات إلى بيان فضل الله على عباده بتنظيم أوقاتهم بين الراحة والسكون ، وبين العمل والحركة .

والمعنى : الله ـ سبحانه ـ هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتخلدوا فيه إلى الراحة والسكون استجماما من مشاق العمل والسعى ، وجعل النهار مبصرا مضيئاً ، ليعين على السعى والعمل فى تحصيل الأرزاق وإنجاز الأعمال ، وتوفير أسباب الحياة والعيش ، إن الله لذو فضل على الناس جميعاً : مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، بتدبير أحوالهم ، وتنظيم أوقاتهم ، ولكن أكثر الناس لا يؤدون حق الشكر لهذه النعم لجهلهم بالمنعم وإغفالهم النظر فى نعمه .

٦٢ - (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) :

أي : ذلكم المتصف بالصفات المذكورة : هو الله وهو ربكم وهو خالق كل شيء لا إله إلا هو ، فهذه جملة من الأخبار مترادفة تُعزِّز اللاحقة منها السابقة عليها وتقررها ، وتؤكد اتصافه - تعالى - بها واستحقاقه لها ، ليحسن بعدها موقع (فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) أي : فكيف تصرفون عن عبادة من هذا شأنه ، وتلك صفاته ، وهذه أياديه وفضائله .

٦٣ - (كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) :

أي : مثل ذلك الإفك العجيب والصرف الغريب عن الحق يصرف كل من جحد بآيات الله وأنكرها مع آثارها الظاهرة وشواهدها الباهرة .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(قَرَارًا) : مَسْكَنًا ومستقرا تستقرون فيه . (بِنَآءً) : سقفا وقبة مضروبة عليكم .
(الطَّيِّبَاتِ) : الحلائل أو المستلذات من المطعم والمشرب والملبس وغيرها.

التفسير

٦٤ - (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

تمضى هذه الآية فى تعداد آيات الله - تعالى - وبيان فضله المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان فى الآيات السابقة .

والمعنى : الله – سبحانه وتعالى – الخالق البارىء الذى لا يعجزه نظام . ولا يشغله شأن عن شأن : واسع القدرة ، بديع الصنعة ، ومن مظاهر قدرته ، وبدائع صنعته أن جعل لكم الأرض مستقرا تستقرون فيها ، وتعيشون عليها ، وتسعون فى مناكبها ، وجعل السماء لكم سقفا محفوظاً وقبّة مضروبة تدفئكم شمسها ، وتهديكم نجومها ، ويمطركم سحابها ، وصوركم فأحسن صوركم حيث خلق كل واحد منكم منتصب القامة متناسب الأعضاء مهيأً لمزاولة الصنائع ، واكتساب المعارف والكمالات ، وزاد فضله فيكم وتضاعفت نعمه عليكم فرزقكم من الحلال الطيب ما تستلذون به مطعما ومشربا فاستحق بهذا كله التنزيه والتأليه ، فتنزه الله – تعالى – رب العالمين ، ومالك جميع الخلائق والمخلوقين ، فالكل فى ملكوته مفتقر إليه فى وجوده وسائر أحواله .

٦٥ – (هُوَ الْحَيُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : هو المتفرد بالحياة الذاتية لا إله إلا هو ، إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته – عزّ وجل – فادعوه واعبدوه وحده لاختصاصه بما يوجب ذلك – ادعوه – مخلصين له الدين من الشرك الخفى والجلى ، حامدين له معترفين بربوبيته الكاملة المستأهلة لدوام الحمد والثناء .

وقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) من الكلام المقول على لسان المأمورين بالعبادة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : « من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين » وذلك قوله – تعالى – : (فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . . .) .

* (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(الْبَيِّنَٰتُ) : البراهين والآيات الواضحات التى تدل على التوحيد .

(أُسْلِمَ) : أنقاد وأخلص . (خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ) : خلق أباكم آدم منه .

(نُطْفَةٍ) : مَنِىٍّ .

(عَلَقَةٍ) : دم غليظ .

(أَشُدَّكُمْ) : كمال عقلكم وقوتكم .

(أَجَلًا مُّسَمًّى) : يوم القيامة ، أو يوم الموت .

(قَضَىٰٓ أَمْرًا) : أراد إبراز أمر إلى الوجود .

(فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) : يوجد عقب الأمر بالتكوين .

التفسير

٦٦ – (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَآءَنِىَ الْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، فقد ذكر القرآن فى الآيات السابقة أن الله خالق كل شىء ، ثم بين بعض آلائه ونِعَمِهِ على خلقه حيث جعل لهم الأرض قرارا ، والسماء بناء ، وصورهم فأحسن صورهم ، ورزقهم من الطيبات ، ثم ذكر بعض صفاته الجليلة وأنه حى لا إله إلا هو ، فتوجهوا إليه وحده بالعبادة والحمد ، فالحمد كله حق ثابت ومقرر لله رب العالمين .

وجاءت هذه الآية لتبين أن الله المتصف بهذه الكمالات أمر رسوله أن يبلِّغ الناس أنه نهى عن عبادة غير الله الذى سبقت صفاته وأمرَ أن ينقادوا ويخلصوا لله رب العالمين فقال :

(قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ . .) إلخ :

أى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين وكانوا قد دعوه إلى دين آبائه - قل لهم يامحمد - : نهانى الله الحى القيوم الذى لا إله غيره عن أن أعبُدَ غير الله ، وأمرت أن أذل وأخضع وأنقاد له - تعالى - وأخلص له - عز وجل - دينى لأنه رب العوالم كلها المستحق وحده للعبادة دون سواه .

٦٧ - (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :

الله وحده الذى خلقكم من تراب ، ثم من مَنِىٍّ ، ثم من قطعة عالقة بجدار الرحم فيها الخطوط الأُولى للتخليق ، ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا ، ثم ينسأ أعماركم ويؤخرها لتبلغوا أشدكم من الكمال والقوة ، ثم مد فى آجالكم لتكونوا شيوخا ، هو وحده الذى يقلبكم فى هذه الأطوار ، وعن أمره وتدبيره يكون ذلك كله .

(وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ) أى : من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله . جعلكم الله على هذا النظام وخلقكم على هذا النمط لتبلغوا وقتا مسمى عنده وهو يوم البعث ، وقيل : يوم الموت ولكى تعقلوا ما فى هذا التنقل فى الأطوار المختلفة من فنون الحِكَم والعِبر والدلالة على أنه - تعالى - قادر على بعثكم ، وقال القرطبى :

(وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ذلك فتعلموا أنه لا إلٰه غيره .

٦٨ - (هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) :

هو الذى يحيى الأموات ويميت الأحياء ، أو الذى يفعل الإحياء والإماتة المتفرد بذلك لايقدر على ذلك أحد سواه ، فإذا أراد إبراز أمر من الأمور إلى الوجود فإنما يقول له : كن فيكون ، من غير توقف على شىء من الأشياء أصلا ،فهو-سبحانه-لايُخالَف ولا يُمانَع ولايعجزه شىءٌ ، ماشاء كان لامحالة من غير كلفة ولا معاناة .

ويقول الزمخشرى -فى موقع جملة : (إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) مما قبلها - يقول : جعل هذا نتيجة لقدرته على الإحياء والإماتة وسائر ماذكر من أفعاله الدالة على أن مقدورا لا يمتنع عليه كأنه قال : فلذلك الاقتدار إذا قضى أمرا كان أهون شىء عليه وأيسره .

وقال العلامة الآلوسى : وهذا عند الخَلَف تمثيل لتأثير قدرته - تعالى - فى المقدورات عند تعلق إرادته- سبحانه- بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور [الآلوسى . ص ٨٤] .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦))

المفـردات :

(أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ) : كيف تصرف عقولهم عن النظر فى الآيات .

(بِالْكِتَابِ) : بالقرآن . (وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا) : من الكتب أو الشرائع .

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) : عقوبة تكذيبهم . وهذا وعيد لهم .

(الْأَغْلَالُ) : القيود تجمع الأيدى إلى الأعناق .

(يُسْحَبُونَ) : يجرون .

(الْحَمِيمِ) : الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة .

(يُسْجَرُونَ) : توقد بهم النار أو تُملأ .

(ضَلُّواْ عَنَّا) : غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم .

(تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ) : تبطرون ودون تفكير فى الآخرة .

(تَمْرَحُونَ) : تتوسعون فى الفرح والبطر ، وقيل المرح : الفخر والخيلاء .

(فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) : فَقَبُحَ مقر المتكبرين جهنم .

التفسـير

٦٩ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ) :

تعجيبٌ من أحوالهم القبيحة وآرائهم الفاسدة ، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وبسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك .

والمعنى : انظر يامحمد إلى هؤلاءالمجادلين فى آيات الله الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها إلى الضلال مع صدقها ووضوحها مما يدعو إلى الإقبال عليها ، والإعراض عما سواها .

٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ -(الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَالسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَٰفِرِينَ *) :

الذين كذبوا بالقرآن وبما أرسلنا به رسلنا من الكتب والشرائع وجادلوا فيها فسوف يعلمون عاقبة ما ارتكبوا من الجدال ، ووبال ما اجترحوا من التكذيب عند مشاهدة عقوبة ذلك ، وجزاءه حيث تكون الأغلال والسلاسل فى أعناقهم والزبانية يجرونهم بها فى الماء الشديد الحرارة ، ثم بعد ذلك فى النار يسجرون ، أى : يطرحون فيها فيكونون وقودا لها .

قال مجاهد : يقال : سجرت التنور أى : أوقدته ، وسجرته : ملأته .

والمراد بهذا وماقبله ردع المجادلين فى آيات الله ، والمكذبين برسله وكتبه وتخويفهم ، برسم هذه الصورة الرهيبة المفزعة التى تقشعر من سماع وصفها الأبدان ، وتذوب لفائف القلوب .

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ) أى : ثم يقال لهم -تقريعا وتوبيخا- : أين معبوداتكم التى كنتم تعبدونها من دون الله ؟ !

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا) أى : قال الكافرون : غابوا عنا ، من ضلت دابته : إذا لم يعرف مكانها .

وهذا لاينافى مايشعر بأن آلهتهم مقرونون بهم فى النار كما ورد فى مواضع أخرى من القرآن ، لأن للنار طبقات ولهم فيها مواقف ، فيجوز غيبتهم عنهم فى بعضها واقترانهم بهم فى بعض آخر ، ويجوز أن يكون ضلالهم استعارة لعدم النفع فحضورهم كالعدم .

(بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا) قال الكافرون : بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد فى الدنيا شيئا يعتد به ، وهو إضراب منهم عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم ، أو ليست بنافعة ، إلى أنها ليست شيئا يعتد به ، وفى ذلك اعتراف بخطئهم

وندم على قبيح فعلهم حيث لاينفع ذلك ، قال الآلوسى : وجعل الجلبى هذه الآية كقوله تعالى : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » :[1] يفزعون إلى الكذب لحيرتهم واضطرابهم .

وهكذا لايكتفى بهذا العذاب الجسدى الذى سبقت صورته البشعة ، بل يضم إليه عذاب نفسى وهو سؤالهم على سبيل التقريع والتأنيب : أين ماكنتم تعبدون من دون الله هل نفعكم هؤلاء الشركاء ؟ فأجابوا : (ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئاً) .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ) أى : مثل ذلك الإضلال يضل الله – تعالى – فى الدنيا الكافرين حتى إنهم يدعون فيها مايتبين لهم فى الآخرة أنهم ليسوا بشىء .

٧٥ – (ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ) :

تقول الملائكة للكافرين : ذلكم العذاب الذى أنتم فيه – المذكور فيما سبق من سحبهم بالسلاسل والأغلال وتسجيرهم فى النار ، وتوبيخهم بالسؤال – ذلكم جزاء ما كنتم تفرحون فى الأرض بغير ما يستحق الفرح ، وتظهرون فى الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة وتنكرون البعث والتوحيد ، وبما كنتم تبطرون وتأشرون[2] حتى نسيتم لذلك الآخرة ، واشتغلتم بالنعمة عن المنعم ، وفى الحديث : « الله تعالى يبغض البَذِخِينَ الفَرِحين ، ويحب كل قلب حزين » ذكره الآلوسى والقرطبى .

والعدول فى الآية إلى الخطاب للمبالغة فى التوبيخ ؛ لأن ذم المرء فى وجهه أبلغ فى التوبيخ .

٧٦ – (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) :

أى : ادخلوا أبواب جهنم مُقدَّرا لكم الخلود فيها ، فبئس المنزل والمأوى الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه .

وكان مقتضى النظم الجليل حيث صُدِّر بلفظ (ادخلوا) أن يقال : فبئس مدخَلُ المتكبرين ، ليتجاوب الصدر والعجز كما تقول : زرت بيت الله فنعم المزار ، وصلِّ

(١) سورة الأنعام من الآية : ٢٣ .

(٢) البطر والأشر : قلة احتمال النعمة وعدم الشكر عليها .

فى المسجد الحرام فنعم المصلى ، وأجاب عن ذلك الآلوسى فقال : لما كان الدخول المقيد بالخلود سبب الثواء عبر بالمثوى وصح التجاوب معنى .

وأجاب عن ذلك الزمخشرى فى كشافه فقال : الدخول المؤقت بالخلود فى معنى الثواء .

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(حَقٌّ) : كائن لا محالة .

(بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ) أى : بعض الذى نعدهم من العذاب بالقتل أو الأسر لهم فى حياتك ، وجواب الشرط فى (فَإِمَّا) تقديره : فذاك .

(أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) أى : نميتنك قبل ذلك ، أى : قبل تعذيبهم .

(فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) : فإلينا وحدنا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم .

(بِآيَةٍ) : بمعجزة .

(أَمْرُ اللهِ) قال الطبرى : قضاؤه ، وقال الزمخشرى : أمر الله القيامة ، وهما متقاربان .

(بِالْحَقِّ) : بالعدل . (الْمُبْطِلُونَ) : أهل الباطل .

التفسير

٧٧ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) :

يأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ فى هذه الآية بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه : فإن الله سينجز له ما وعده به من النصر والظفر على قومه ، وجعل العاقبة له ولمن اتبعه فى الدنيا والآخرة .

(فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ) به من العذاب فى الدنيا فذاك ، وذلك وقع ، فإن الله قد أقر عينه من كبرائهم وعظمائهم ، أبيد بعضهم يوم بدر ، وأسر بعض آخر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى حياته .

(أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ[1]) أى : أو نميتنك قبل ذلك ، أى : قبل أن ننتصر عليهم وننتقم منهم .

(فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) أى : فإلينا لا إلى غيرنا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم على أعمالهم ونعذبهم أشد العذاب .

فإن قيل : إن الله - تعالى - يعلم أنه سينصره فى حياته ، فلماذا لم يصرح بنصره على القطع؟

فالجواب : أن أهـل مكة كانوا يتمنون موت النبى ﷺ ويسعون فيه ، فالله رد عليهم بذلك مجاراة لهم ليفهمهم أن موت محمد لا يعفيهم من العذاب الموعود .

٧٨ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) :

فى هذه الآية رد على قريش فى طلبهم من الرسول آيات غير التى أتاهم بها ، فبينت أن مجئ الآيات فى عهد جميع الرسل لله وحده ، وخسر المعاندون .

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلا كثيرين ، ذوى شأن عظيم من قبل إرسالك ، منهم من جئناك بأخبارهم وأوحينا إليك قصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة وذلك كنوح وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - .

---

(١) معطوف على نرينك داخل معه فى حيز الشرط ، ومؤكد مثله بنون التوكيد ، وهو شبيه بالواجب ، لوقوعه بعد إن الشرطية المدغمة فى (ما) الزائدة ، لتقوية التأكيد ، وليست نافية .

ومنهم من لم نقصصهم عليك وهم كثيرون ، أخرج الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قلت : يارسول الله ، كم عدة الأنبياء؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر ، جما غفيرا » .

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) أى : وما صح وما استقام لرسول من أولئك الرسل أن يأتى بمعجزة إلا أن يأذن الله ، فالمعجزات : وهى الآيات الدالات على صدق الرسل : على تشعب فنونها واختلاف أنواعها عطايا من الله – تعالى – قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ، ليس لهم اختيار فى الإتيان بها ، أو تحقيق المقترح منها ، لأن الرسل عباد مربوبون له – تعالى – لا يأتون بشىء من تلقاء أنفسهم ، أو خضوعاً لاقتراح قومهم .

(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ) : وهو قضاؤه بالعذاب فى الدنيا أو الآخرة يوم القيامة (قُضِيَ بِالْحَقِّ) أى : فصل بينهم بالعدل بإنجاء المحق وإثابته وإهلاك المبطل .

(وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) أى : خسر المبطلون فى هذا الوقت – وهو وقت مجىء أمر الله – والمراد بالمبطلين : أهل الباطل على الإطلاق المتمسكون به ، فيدخل فيهم المفترون على الله والمعاندون والمقترحون للآيات دخولا أوليا .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(الْأَنْعَامَ) : الإبل خاصة ، وقيل : الإبل والبقر والغنم والمعز .

(حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ) : أمرًا ذا بال تهتمون به .

(آيَاتِهِ) : دلائل قدرته ووحدانيته فى الآفاق وفى أنفسكم .

(فَأَىَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ) : لا تقدرون على إنكار شىء منها إلا أن تعاندوا وتكابروا .

التفسير

٧٩ - (اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

المراد بالأنعام الإبل خاصة ، وعممها بعضهم لتشمل الإبل والبقر ، والغنم ، والمعز .

يقول الله - سبحانه - مُمتنًّا على عباده بما خلق لهم : (اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ) أى : خلقها (لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) : تفصيل لما دل عليه الكلام السابق إجمالا ، وتعليل لجعلها وخلقها ، أى : خلق لكم - سبحانه - الإبل وسائر الأنعام لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها .

٨٠ - (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) :

ولكم فيها منافع كثيرة غير الركوب والأكل كالألبان والأوبار والأشعار والجلود .

(وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ) أى : ولتبلغوا عليها أمرا ذا بال تهتمون به ، وذلك كجر الأثقال وحملها من بلد إلى بلد ، وعلى الإبل التى هى نوع من الأنعام فى البر ، وعلى السفن فى البحر تُحْمَلُون أنتم وأمتعتكم ، والمراد من ركوبها والأكل منها والحمل عليها والمنافع الأخرى تعلقها بالمجموع لا بالجميع ، فليس كل واحد من الأنعام يجتمع فيه الركوب والأكل والحمل وغيرها ، لأن المراد أن هذه المنافع موزعة بينها ، فمنها ما يجتمع فيه المنافع كلها كالإبل ومنها ما يكون فيه بعضها كالغنم .

٨١ - (وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَىَّ ءَايَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ) :

ويريكم الله حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ، ودلائله على كمال شئونه وقدرته ووحدانيته ، فأى آية من هذه الآيات الباهرات تنكرون حتى أشركتم به ؟ فإن كلا منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكاره من له عقل ، وأنتم لا تنكرون أن ذلك من فضل الله على عباده ، ولكنكم مع ذلك تعبدون غيره ، وهو لا يقدر على خلق ذبابة . (فَأَىَّ) للاستفهام

التوبيخى ، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل بدل ضميره فى قوله-تعالى-: (آيات الله) لتربية المهابة ، وتهويل إنكار آياته فى صورة عبادتكم لغيره .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾)

المفردات :

(آثاراً فى الأرض) : قصورهم ومصانعهم فيها .

(البينات) : المعجزات والشرائع الواضحات .

(فرحوا بما عندهم من العلم) : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا .

(حاق) : أحاط أو نزل .

(فلما رأوا بأسنا) : فلما عاينوا شدة عذابنا .

(وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون (بما كنا به مشركين) : الأصنام وسائر آلهتهم الباطلة .

(وخسر هنالك الكافرون) : وهلك فى مكان نزول العذاب الكافرون .

التفسير

٨٢- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ :

أى : أقعدوا فلم يسيروا فى الأرض ، فيروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ممن سبقهم من الأمم المكذبة للرسل منذ الأزمنة الماضية ، وماذا حلّ بهم من العذاب الشديد والهلاك والتدمير ، ولقد كانوا أكثر منهم عددا ومالا وأشد منهم قوة وبأسًا وآثارًا فى الأرض من قصور ومصانع فما أغنى عنهم ذلك شيئا ، ولا رد عنهم من بأسه وعذابه ماكسبوه من قوة وسلطان وما جمعوه من أموال .

٨٣- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ :

فحين جاءت هذه الأممَ رسلُهم بالشرائع والمعجزات والآيات الواضحات لم يلتفتوا إليهم ولم يقبلوا عليهم ، بل فرحت هذه الأمم بما عندهم من علوم الدنيا واستهزأوا بعلم الله الذى جاء به الأنبياء ، كما قال- تعالى- : «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ»[1] فنزل بهم من بأس الله مالا قبل لهم به ، وأحاط بهم العذاب الذى أخبرهم به المرسلون وكانوا يستهزئون ويسخرون منه ويستبعدون وقوعه .

وقيل : المراد بما عندهم من العلم :علم الفلاسفة الذى فرحوا به وأقبلوا عليه ، وتركوا من أجله هدى السماء الذى جاء به الأنبياء ، والزمان متشابه ، فقد رأينا فى هذا الزمان من ترك وحى الله وشريعته فرحا بما أصاب من فضلات هؤلاء الفلاسفة .

٨٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ :

فلما رأت تلك الأمم عقابنا الذى أوعدتهم به الرسل ، وعاينوا عذابنا الشديد الذى نزل بهم قالوا : صدقنا بالله وحده ، وأنكرنا الأصنام ، وجحدنا الآلهة الباطلة التى كنا

(١) سورة الروم ، الآية : ٧

مشركين بسبب عبادتنا لها ، وهكذا وحدوا الله - عز وجل - وأفردوه بالعبادة وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لاتُقال العثرات ولاتنفع المعذرة .

٨٥- (فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) :

أى : فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم عند رؤية عذابنا الشديد ، وخسر الكافرون وهلكوا وقت وقوع العذاب ، والحكمة الإلهية قضت ألّا يقبل ذلك الإيمان ، لأن الله سن سنة قد سبقت فى عباده ، ألا يقبل الإيمان حين نزول العذاب ، ومثل هذا ماحدث لفرعون ، فلقد حكى القرآن عنه أنه قال - حين أدركه الغرق - : « آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ »[1] فرد الله عليه فقال : « آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »[2] ولم يقبل الله من فرعون هذا الإيمان الذى اضطر إليه حين أدركه الغرق ، وتلك التوبة التى كانت حين حضره الموت ، ومات كافرا مهانا ، وأمضى الله فيه سنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(١) سورة يونس ، من الآية ٩٠ .

(٢) سورة يونس الآية ، ٩١ وبعض الآية ٩٢ .

« سورة فصّلت »

مكية ،وآياتها أربع وخمسون ،نزلت بعد غافر ، وتسمى سورة السجدة ، وسورة حم السجدة ، وسورة الأقوات .

مناسبتها لما قبلها : ذكر-سبحانه وتعالى-فى سورة (غافر) : « أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . » الآية ٨٢ وكان ذلك متضمناً تهديدًا وتقريعاً لقريش ، وذكر-جل شأنه-هنا فى سورة فصلت تهديدًا وتقريعاً لهم ، وخصهم بالخطاب فى قوله-تعالى- : « فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . . . » الآية ١٣ ثم بين-سبحانه كيفية إهلاكهم وفيه نوع بيان لما فى قوله-تعالى- : « أَفَلَمْ يَسِيرُواْ . . . » إلخ الآية .

وبينهما أوجه من المناسبة غير ما ذكر كذكر قصص بعض الأنبياء ، والدعوة إلى التوحيد ، وبيان عاقبة المخالفين .

مقاصد السورة :

بدئت السورة الكريمة ببعض حروف المعجم كما فى بعض سور القرآن الكريم ، ولقد أشادت السورة فى أكثر من موضع بسمو القرآن ، ورفعة شأنه ، وما جاء به من تبشير وإنذار ، ثم ذكرت موقف المشركين من الرسول ﷺ ، وما أظهروه من تعنت معه . وشدة إعراضهم عنه ، واستهزائهم به ، ومحاربة دعوته ، ومجابهته بالزور والأباطيل ، وموقف الرسول منهم ، وثقته بالله ، وثباته على دعوتهم إلى التوحيد والاستقامة ، ثم تمضى السورة فى تذكير المشركين بآيات الله فى خلق السموات والأرض، وتنذرهم بما حدث لأقرب الأمم إلى منازلهم وهم عاد وثمود ، وما نزل بهم من عذاب ، وتخوفهم بذكر بعض مشاهد يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم أعضاؤهم بما اقترفوا من سيئات ، وما يكون بينهم وبين هذه الأعضاء من مجادلة ومحاجة ، وما يدعو به الأتباع ربهم فى هذا اليوم العظيم :

(رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)[1]

ثم تتحدث عن المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وما أعد لهم ، وتعقد الموازنة بين الخير والشر ، وتبين أثر الكلمة الطيبة والأخلاق الحسنة فى النفوس : (وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ)[2] .

ثم تمضى السورة الكريمة تلفت الأنظار إلى قدرة الله على البعث وإحياء الموتى ، وتنذر الملحدين فى آيات الله وهم لا يخفون عليه فقد وسع علمه كل شىء ، وتبين أن الذين كفروا بالقرآن من غير تدبر لآياته سيكون لهم العذاب الشديد والعقاب الأليم .

والسورة تذكر الرسول بأن ما يقال له من أعدائه قد قيل للرسل من قبله من أعدائهم ، فصبروا وصمدوا ، وبلغوا الرسالة ، وأدوا الأمانة ، وتبين أن ربك لذو مغفرة لمن يجيب داعى الله ، وذو عقاب شديد لمن تمرد ولم يلب النداء ، ثم يبين الحق ـ جل جلاله ـ أنه لوجعل القرآن أعجميا ، كما اقترح ذلك بعض المتعنتين والمكابرين ، لقالوا معترضين منكرين : هلا نزل بلغة نفهمها ولسان نعرفه ؟ ويأمر الرسول بأن يقول ردا عليهم : (هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

ثم تذكر السورة صورًا من طبائع الإنسان وأسلوب سلوكه . (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) وتختم السورة بمثل ما بدئت به من التنويه بالقرآن الكريم ، وأن الله سيُظْهر بحججه وآياته فى الآفاق وفى أنفس الناس ـ سيظهر ـ أنه الحق الذى لاريب فيه . (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وتوضح أن ماحدث من الكافرين من إنكارهم للرسالات سببه أنهم فى شك من لقاء ربهم . (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) .

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ٢٩ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥)

المفردات :

(فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) : بُيِّنت ومُيِّزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة .

(قُرْآناً عَرَبِيًّا) : مقروءًا باللسان العربي .

(لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) : يعلمون ما فيه ، لكونه بلسانهم .

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ) : انصرف واستكبر أكثرهم على الإصغاء إليه وهم كفار قريش .

(فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) : سماع قبول .

(أَكِنَّة) : أغطية متكاثفة ، جمع كِنَان كَغطاء وزْناً ومعْنًى .

(وَقْرٌ) : صمم ، وأصله : الثقل .

(حِجَابٌ) : ساتر مانع عن الإجابة .

التفسير

١ ـ (حمٓ) :

قال السلف : في مثل هذه الحروف : الله أعلم بمراده ، وقيل : اسم للسورة أو للقرآن ، وقيل : حرفان مسرودان من حروف المعجم بُدِئَت بهما السورة كنهج القرآن وطريقته في

افتتاح بعض سوره بذلك ، لبثّ الانتباه ، وللتدليل على إعجاز القرآن بأنه مؤلف من كلمات ذات حروف مما تنظمون منه كلامكم ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، ومحمد مثلكم ، وذلك دليل على أنه من عند الله ، وقد تقدم الكلام على مثل هذه الحروف موسعاً فى أول سورتى البقرة وآل عمران ، فارجع إليه إن شئت .

٢ – (تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ) :

أى : هذا القرآن الكريم منزل من الله الرحمن الرحيم ، وإضافة التنزيل إلى الرحمن الرحيم من بين أسمائه – تعالى – الإيذان بأن ما فيه من تشريع وخير للبشرية ومصالح دينية ودنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية .

٣ – (كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

أى : القرآن كتاب ميزت آياته ، لفظاً بفواصلها ومقاطعها ، وأوائل السور وخواتمها ، ومُيِّزتْ مَعْنًى بما فيها من وعد ووعيد ، وشرائع وعقائد ، وقصص وأخلاق وعلوم . ومن أنصف عَلِمَ أنه ليس فى الكتب كتاب اجتمع فيه من العلوم والمعارف المتنوعة مثل ما فى القرآن وقال سفيان : فصلت بالثواب والعقاب ، وما ذكرنا أولا أعم ، ولعل ما ذكره من باب التمثيل لا الحصر ، وقيل : (فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) فى التنزيل ، أى : لم ينزل جملة واحدة ، وقرىء (فَصَلَتْ) بفتح الفاء والصاد مخففة ، أى : فرقت بين الحق والباطل . . وقال ابن زيد : فصلت بين النبى ﷺ وبين من خالفه .

(قُرْءَاناً عَرَبِيًّا) أى : مقروءًا باللسان العربى ، وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسان من نزل بين أظهرهم .

(لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أى : لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة البينة بلسانهم العربى المبين ، لا يلتبس عليهم شىء منه ، ولو كان غير عربى لما علموه .

٤ – (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) :

(بَشِيرًا وَنَذِيرًا) صفتان لقوله : (قُرْآناً) أى : تارة يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسناً ، وتارة ينذر الكافرين والمخالفين بما أعد لهم من عذاب أليم وعقاب شديد ،

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُم) أى : انصرفوا عن تدبره وقبوله ، والإصغاء إليه واتباعه ، فلم ينتفعوا به (فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) القرآن سماع تدبر وإمعان ، وقد جُعلوا لإعراضهم عنه غير سامعين له على سبيل المجاز .

٥ - (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) :

وقال الكافرون لرسول الله : (قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ) أى : قلوبنا فى أغطية متكاثفة لا ينفذ إليها شىء مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا من عبادة الأوثان (وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ) أى : وفى آذاننا صمم فلا نسمع ماتعرضه علينا . (وَمِن بَيْنِنَا وبَيْنِكَ حِجَابٌ) أى : ومن بيننا وبينك حجاب منيع وساتر غليظ ، يمنعنا من قبول ما جئتنا به ، ومن التواصل بيننا وبينك ، وهو الخلاف فى الدين ، لأنهم يعبدون الأصنام ، وهو يعبد الله - عز وجل - .

و (مِنْ) فى قوله - تعالى - : (وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) للدلالة على أن الحجاب مبتدىء من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ، ولم يبق فراغ أصلا .

قال الآلوسى : وما حكاه الله عنهم فى الجمل الثلاث : (قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ، وطرد أسماعهم له ، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ .

وذكر أبو حيان : أنه لما كان القلب محل المعرفة ، والسمع والبصر معينين على تحصيل المعارف ، ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها شىء مما يدعو إليه الرسول (فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) أى : فاعمل على دينك ، أو فى إبطال أمرنا ، إننا عاملون على ديننا ، أو عاملون فى إبطال أمرك ، والكلام على الأول متاركة وتقنيط عن اتباعه ، وعلى الثانى مبارزة بالخلاف والتحدّى .

(قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾)

المفردات :

(فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ) : فاسلكوا إليه الطريق المستقيم بالتوحيد .

(الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) : لايؤدون الزكاة المفروضة إلى مستحقيها ، وقيل : المراد بالزكاة : المعنى اللغوى ، أى : لايفعلون ما يزكى أنفسهم ويطهرها وهو الإيمان والطاعة .

(غَيْرُ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع ولا منقوص .

التفسير

٦ - (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ) :

أى : قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين المكذبين : ما أنا إلا بشر مثلكم ، لست ملكاً ولاجنيا لايمكن التلقى منه ، والفهم عنه ، ومعرفة ما يدعو إليه ، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول السليمة ، وترفضه النفوس القويمة ، وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذى جاءت به كل الأديان ، ودعت إليه كل رسالات السماء ، ودلت عليه دلائل العقل ، فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة ، ولا تتمسكوا بِعُرَى الشرك وتقولوا لمن يدعوكم إلى التوحيد : (قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ) بل اسلكوا فى الوصول إليه الطريق القويم ، واطلبوا منه المغفرة لما سلف

منكم من القول والعمل ، كالشرك بالله - عز وجل - ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : وعذاب أليم وهلاك شديد للمشركين لشركهم وعدم استقامتهم وتوبتهم .

٧ - ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ :

قال ابن كثير : قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس : يعنى الذين لايشهدون أن لا إله إلا الله ، وكذا قال عكرمة ، وهذا كقوله -تعالى- : « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا »[1] وكقوله - سبحانه - : « قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »[2] والمراد بالزكاة هنا : طهارة النفس من الشرك والأخلاق الذميمة .

وقال السدى : ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أى : لا يؤدون الزكاة المعروفة ، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير ، وإن اعترض على هذا الرأى بأن إيجاب الزكاة كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة -كما ذكره غير واحد - وهذه الآية مكية ، فقد أجيب عن ذلك بأن إطلاق اسم الزكاة على طائفة مُخْرَجَةٍ من المال على وجه مخصوص كان شائعاً ومأموراً به فى ابتداء البعثة ،قال -تعالى- : «وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »[3] فأما الزكاة المعروفة ذات النصاب والمقادير المخصوصة فإنما بُيِّن أمرها بالمدينة .إ هـ :ابن كثير بتصرف . ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ الجملة حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة وبخلهم بها ، لإنكارهم للآخرة واستغراقهم فى الدنيا ، وإنما خُص منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة من بين أوصاف المشركين ، لأن أحب شئ إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته ، وصدق نيته وصفاء طويته ، ألا ترى إلى قوله -تعالى- : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ »[4]

أى : يثبتون ويدللون على ثباتها على الإيمان بإنفاق الأموال ، وفى هذا حث للمسلمين على إخراج الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة .

---

(١) سورة الشمس ، الآيتان : ٩ ، ١٠

(٢) سورة الأعلى ، الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٣) سورة الأنعام - وهى مكية - من الآية : ١٤١

(٤) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦٥ .

٨ - (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) :

لما ذكر ما ينال المشركين بقوله- تعالى- : (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .) إلخ. ذكر ما ينال المؤمنين المخلصين ومعناه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جزاء حسن ، وأجر غير مقطوع ولا منقوص ، قال ابن عباس : (غَيْرُ مَمْنُونٍ) غير مقطوع ، مأخوذ من : مَنَنْتُ الحبل : إذا قطعته ، وعنه أيضاً وعن مقاتل : (غَيْرُ مَمْنُونٍ) غير منقوص وهذان الرأيان متقاربان فى المعنى المراد . ولذا اخترناهما فى تفسير قوله - تعالى - (غَيْرُ مَمْنُونٍ) .

والآية الكريمة - كما روى عن السدى - نزلت فى المرضى والزمنى إذا عجزوا عن كمال الطاعات كتب لهم من الأجر - فى المرض والهرم - مثل الذى يكتب لهم وهم أصحاء شبان ولا تنتقص أجورهم ، وذلك من عظم كرم الله ورحمته ، نسأله-سبحانه-أن يتغمدنا برحمته إنه نعم المولى ونعم النصير .

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(فِى يَوْمَيْنِ) : من أيام الله ، لا من أيامنا .

(أَندَادًا) : جمع نِدّ ، وهو الكفء والنظير .

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ) : وجعل فيها جبالا ثوابت .

(وَبَارَكَ فِيهَا) : أكثر خيرها وزاده .

(وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا) : قسم فيها أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

(فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً) : فى أربعة أيام كاملة لانقصان فيها ولا زيادة .

التفسير

تمهيد :

بين الله – سبحانه – فى الآيات السابقة أن رسوله محمدًا ﷺ لم يكن إلا بشرًا كسائر البشر ، أُوحِىَ إليهِ من ربه : أن إلههم إله واحد ، وأمرهم أن يستقيموا فى عبادته ويستغفروه عما فرط منهم من المعاصى والسيئات ، وهدد بالويل والثبور أولئك المشركين الضالين الذين لا يزكون أنفسهم ، ولا يطهرونها بالإيمان بشريعة الله ، وهم يكفرون بالآخرة ومافيها من جنة ونار وثواب وعقاب ، كما بين – جل شأنه – أن للمؤمنين الصالحين أجرًا دائماً ، وثواباً عظيماً غير مقطوع ، وبعد أن بين ذلك قال – سبحانه – فى تخطئة من كفر به :

٩ – (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا . .) :

قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن المراد من اليوم فى الآية ما تعارف عليه الناس ، من أنه من الفجر إلى غروب الشمس ، أو من شروقها إلى غروبها ، أو مجموع النهار والليل .

ولكن هذا الذى يتبادر إلى بعض الأذهان غير صحيح ، فقبل خلق الأرض لم يكن الليل والنهار موجودين ، فإنهما نشآ بعد وجود الأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس ، على أن النهار والليل بنظامهما فى أرضنا ليس موجودا فى كوكب آخر ، فلو أنك ذهبت إلى القمر أو إلى أى كوكب غيره لوجدت الليل والنهار يختلفان عن نظامهما فى أرضنا هذه .

إذا عرفت هذا فاعلم أن اليومين اللذين خلق الله فيهما ذات الأرض وجسمها من أيام الله – تعالى – وأيامه – جل وعلا – تختلف فى شئونه ، فمرة يكون اليوم ألف سنة ، قال – تعالى – : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ

سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ »[1] وكقوله -تعالى- : «وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ »[2] ومرة يكون مقداره خمسين ألف سنة ، كقوله -تعالى- : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »[3] وقد يكون أكثر من ذلك .

وحيث كان الأمر كذلك فالأيام التى خلق الله فيها الأرض والسموات لا نستطيع تقدير اليوم فيها بألف سنة ، أو بخمسين ألف سنة ، أو بأكثر من ذلك حسب سنة التطوير التى أرادها الله فى تكوينها ، وحيث أمسك القرآن والسنة عن بيان مقدار اليوم فى خلقهما ، فعلينا أن نمسك عن الحلس والتخمين فيه .

ولفظ (إنَّ) فى (أَئِنَّكُمْ) لتأكيد الإنكار ، وقدمت عليها همزة الاستفهام الإنكارى لأن لها الصدارة ، أو الإشعار بأن كفرهم المؤكد من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه مع وجود هذه الآيات المقتضية لعميق الإيمان .

والمعنى : قل أيها الرسول منكرا على المشركين أشد الإنكار ، ومشعرا بأن كفرهم مع هذه الآيات لا يعقل ، قل لهم : لماذا تكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتلحدون فى ذاته وصفاته ، حيث جعلتم له أندادا وشركاء عبدتموهم معه -تعالى- مع أنهم لا شأن لهم فى خلقها ؟ !

واعلم أن المراد بالأرض الأرضون السبع ، كما جاء فى قوله - تعالى - : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »[4] (ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) أى :ذلك العظيم الذى فعل ما ذكر هو رب العالمين ، وخالق ما كان وما يكون ، إنه هو الذى يمد كل مخلوق بأسباب حياته وبقائه ، ويمنحه مقومات وجوده بيسر وسهولة : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[5] .

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ٥ .

(٢) سورة الحج ، من الآية : ٤٧ .

(٣) سورة المعارج ، الآية : ٤ .

(٤) سورة الطلاق ، من الآية : ١٢ .

(٥) سورة يس الآية : ٨٢ . وكان ابن عباس يرى أن الأرضين الست الأخرى فيها مكلفون مثلنا فى أرضنا هذه .

١٠ـ (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ...) الآية :

أى : أنه ـ جل شأنه ـ أوجد فى الأرض جبالا ثوابت حتى لا تضطرب ولا تميد ، ليمشى الناس فيها ويترددوا فى أمر معاشهم ، ويحصلوا أرزاقهم ، ويعمروا تلك الأرض تحقيقاً لقوله ـ تعالى ـ : « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا »[1] (وَبَارَكَ فِيهَا) أى : وكثّر فى الأرض خيرها ، فأجرى فيها عذب الماء ، فتنبت الزرع والأشجار ، قال ـ تعالى ـ : « يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ »[2]. ويسقى الله منه أنعاماً وأناسىّ كثيرا ، وأوجد فيها ـ سبحانه ـ البحار نأكل منها لحما طريا : السمك بأنواعه وأشكاله وطعومه ، ونستخرج منها حلية نلبسها ونتزين بها : كاللآلىء والمرجان ، ونمخر عبابها بالسفن الجوارى التى تنقل الناس من بلد إلى آخر يبتغون من فضل الله رزقاً حلالا طيبا ، فيتبادل الناس المنافع والخيرات (وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا) أى :قدر ـ سبحانه ـ أن يوجد من الأنواع المختلفة ما يناسب كل إقليم وبلد ، وخص أماكن بأنواع من النبات والثمرات والمعادن التى تدخل فى الصناعات ، وجعل بعضا آخر من تلك النعم فى بقاع أخرى ليكون كلٌّ فى حاجة إلى غيره فتعمر الأرض ، ويتعارف الناس ، ولله در القائل :

الناسُ للناس من بَدْوٍ وحاضرة بعضٌ لبعض وإن لم يَشْعُرُوا خَدَمُ

(فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّائِلِينَ) قد يخطر على الذهن أنه ـ تعالى ـ جعل فى الأرض رواسى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى زمن مقداره أربعة أيام ،وهذا خطأ لأنه يترتب عليه أن الله خلق الأرض وما عليها فى ستة أيام : يومين لخلق ذات الأرض وأربعة أيام لخلق ما عليها .

ووجه الخطأ فى ذلك أن الله ـ تعالى ـ خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ،[3] فوجب تأويل الآية ليبقى يومان من السّتّة لخلق السموات ، وذلك بتقدير مضاف ، أى :

---

(١) سورة هود من الآية : ٦١ .

(٢) سورة النحل من الآية : ١١ .

(٣) قال ـ تعالى ـ فى سورة السجدة : « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ... » إلخ الآية الرابعة.

فى تتمة أربعة أيام ، بأن جعلها فى يومين آخرين غير اليومين الأولين ، فتم أربعة أيام ، وأولها الزمخشرى تأويلا جميلا ، فجعل (فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) خبرا لمبتدأ مقدر ، أى : كل ذلك من خلق الأرض وما بعده كائن فى أربعة أيام .

وجاء قوله ـ تعالى ـ : (سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ) بعد ما تقدم ليفيد أن الأيام الأربعة متساوية وكاملة لانقص فيها ، وأن هذا جواب للسائلين عن الأيام التى خلقت فيها الأرض ، وجعلت صالحة للمعاش ، وقوله : (لِّلسَّآئِلِينَ) خبر لمبتدأ تقديره : هذا الحصر فى الأيام الأربعة كائن للسائلين .

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(ثُمَّ اسْتَوَى) : ثم قصد .

(فَقَضَاهُنَّ) : فخلقهن وأتقن أمرهن .

(وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا) : وخلق فى كل منها ما أعد لها .

التفسير

١١ ـ (ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) :

أى : ثم اقتضت حكمته أن يخلق السماء بعد خلق الأرض وهو - سبحانه - لا يشغله شأن عن شأن فعمد إلى خلقها وقصد تسويتها ونقلها من الدخان إلى الكثافة . وهذا الدخان هو الذى يعبر عنه العلمانيون بالغاز ، وكان الله قد خلقه ليكون أساسا لخلقها .

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا) أى : جيئا بعد أن خلقتكما بما خلقت فيكما من النافع والصالح وأظهراه وأخرجاه لخلقى كى ينتفعوا به .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال الله - تعالى - للسماء : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شقى أنهارك وأخرجى شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين .

(قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أى : امتثلنا أمرك طائعين .

وجمهور المفسرين يرى أن أمر الله صدر للسماء والأرض بعد خلقهما ، وفى قوله - تعالى - : (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً) وجهان ، أحدهما : أنه قول تكلم به الله - سبحانه وتعالى - والثانى : أنه تمثيل لتحتم تأثير قدرته - تعالى - فيهما ، واستحالة امتناعهما عن ذلك ، لا إثبات الطوع والكره لهما .

وقيل فى قوله - تعالى - حكاية عن إجابة الأرض والسماء : (أَتَيْنَا طَائِعِينَ) إن الله - تعالى - خلق الكلام فى الأرض والسماء فتكلمتا كما أراد الله ، وقيل : لم يحدث منهما كلام ، وإنما هذا كناية عن الطاعة والإذعان والامتثال وهو الظاهر .

وقال - سبحانه - : (طَائِعِينَ) بجمع المذكر العاقل ، ولم يقل : طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى باعتبار أنها سموات وأرضون ، لأن الله أخبر عنهما وعمن فيهما من الذكور العقلاء فغلّب جانبهم ، وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة ، وذلك من صفات من يعقل أجراهما مجرى العقلاء فى التعبير عنهما ، ومثله قوله - تعالى - حكاية عن رؤيا يوسف - عليه السلام - لسجود الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر له « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ »[1]

مع أن الضمير فى (رَأَيْتُهُمْ) ضمير جماعة العقلاء ، وقد عاد إلى الشمس والقمر والكواكب وهى غير عاقلة .

(١) سورة يوسف من الآية : ٤

وقيل :معنى الأمر فى قوله–تعالى– : (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا) هو الإيجاد ،أو كونا كما أردنا وقدرنا فكانتا ، وعلى هذا الرأى يكون الأمر للسموات والأرض قبل خلقهما .

١٢– (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ) :

أى : خلقهن خلقا إبداعيا وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة فى يومين من أيام الله « وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا » أى : خلق– سبحانه – فى كل منها ما اقتضت حكمته أن يكون فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما يعرفه البشر وما لا يعرفونه ، وقال قتادة والسدى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وخلق فى كل سماء خَلْقَها من الملائكة والخلق الذى فيها . . (وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) أى :جمّل السماء الأولى القريبة منا وحسنها بكواكب تضىء وهى النيرات التى خلقها الله زينة لها ، وخص كل واحد منها بضوء معين وسر مصون وطبيعة خاصة لا يعرفها ولا يعلمها إلا الله . (وَحِفْظاً) : أى وحفظنا السماء حفظا من أن ينالها تلف أو يصيبها ضعف (ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) أى : ما تقدم من خلق الأرض وما فيها فى الأيام الأربعة ، وخلق السماء وما حوت وضمت فى يومين هو صنع العظيم القدرة الكامل العلم .

وما أحسن هذه الخاتمة وهذا التذييل لتلك الآيات فهذه الأعمال العظيمة لا تحصل ولا تتم إلا بقدرة كاملة وعلم محيط .

وللآثار التى ظاهرها التعارض اختلف فى أمر التقدم والتأخر فى خلق كل من السموات وما فيها والأرض وما فيها –أيهما أسبق خلقا– فذهب بعض العلماء إلى تقدم خلق السموات وما فيها على خلق الأرض وما فيها مستدلين بظاهر قوله–تعالى– : « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَآ ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ، مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »[1] أى : دحا الأرض بعد أن سمك السماء ورفعها وسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . وذهب فريق آخر :

(١) سورة النازعات الآيات : من ٢٧ إلى ٣٣

إلى أن الأرض وما فيها خلقت قبل السماء وما فيها مستدلا بهذه الآيات التى نحن بصددها وبقوله ـ تعالى ـ : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ »[1] :

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الله ـ جلت قدرته ـ خلق ذات الأرض أولا قبل خلق السماء، ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم أوجد الأشياء التى على الأرض من جبال وغيرها ، إذ لا يتصور حدوث العمران والحياة بصورها وأشكالها قبل خلق السموات وهذا واضح من قوله ـ تعالى ـ : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا) إلخ ،وهذا هو الجواب الذى أجاب به ابن عباس ، فقد روى الحاكم والبيهقى بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل إلى ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ فقال : رأيت أشياء تختلف علىَّ فى القرآن ،قال : هات ما اختلف عليك من ذلك ، فقال : الله ـ تعالى ـ يقول : (أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ) حتى بلغ (طائِعين) فبدأ بخلق الأرض فى هذه الآية قبل خلق السماء ،ثم قال ـ سبحانه ـ فى الآية الأخرى : (أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا) ثم قال : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) فبدأ ـ جل شأنه ـ بخلق السماء قبل خلق الأرض ، فقال ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ : أما خلق الأرض فى يومين ، فإن الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دخانا ، فسواهن سبع سماوات فى يومين بعد خلق الأرض ، وأما قوله ـ تعالى ـ : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) فيقول : جعل فيها جبالا وجعل فيها أنهارا وجعل فيها شجرا وجعل فيها بحـورا ، قال الخفاجى تعليقاً على ذلك : يعنى أن قوله ـ تعالى ـ : (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا) بدل أو عطف بيان لدحاها بمعنى بسطها مبين للمراد منه ، فيكون تأخرها فى هذه الآية ليس بمعنى تأخر ذاتها ، بل بمعنى تأخر خلق ما فيها وتكميله وترتيبه لينتفع به أهلها . . إ هـ : بتصرف يسير .

والواقع أن السماوات والأرض كانتا دخانا « وهو ما يعبر عنه العلم الحديث بالغاز » وأن الله ـ تعالى ـ خلق الأرض والسماء من هذا الدخان بالكيفية الحكيمة التى أتقنها تدبيره وفى ذلك يقول الله ـ تعالى ـ : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا »[2] .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٩ . (٢) سورة الأنبياء من الآية : ٣٠ .

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ⑬ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ⑭)

المفردات :

(أَعْرَضُوا) : ولَّوْا وانصرفوا .

(صَاعِقَةً) : كتلة نارية محرقة .

التفسير

١٣ ـ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)[1] :

أى : فإن تولوا وانصرفوا عن الإيمان بوحدانية الله ، وبما جئت به بعد ماتلوت وقرأت عليهم من الأدلة والحجج الناطقة بوحدانية الله وقدرته، ـ إن أعرضوا بعد ذلك ـ فحذرهم وخوفهم صاعقة تصعقهم وتهلكهم كصاعقة عاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وخص هؤلاء بالذكر لأن قريشا كانت تعلم أحوالهم ، وتعرف بلادهم فى اليمن والحِجْر ، مصداق ذلك قوله ـ تعالى ـ : « وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ »[2] .

١٤ ـ (إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) :

أى : أخذتهم الصاعقة والعذاب الشديد وقت مجىء الرسل لهم وتكذيبهم إياهم ، والرسل ـ عليهم السلام ـ لم يألوا جهدا ويقصروا فى هدايتهم وإرشادهم ، بل بذلوا غاية الوسع

(١) أى : أنذركم ، وصيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوع المنذر به .

(٢) سورة العنكبوت من الآية : ٣٨ .

وأتوهم (مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) أى : من كل جانب واتخذوا فيهم كل حيلة ليثنوهم عن غيهم وضلالهم ، ويدلوهم على الصراط المستقيم ، ويدعوهم (أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اللَّهَ) أى يفردوه بالعبادة والطاعة ، ولا يشركوا به أحدا ، ومع ذلك لم ير الرسل منهم إلا العتو والإعراض .

وعن الحسن : أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ، لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى ، وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى فيه عليهم .

(قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً) أى : قال الكفار : لو أراد ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة تدعونا إلى عبادته ، لذا (فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ) أى : فإذا كنتم بشرا مثلنا ولستم ملائكة فإنا لا نؤمن بكم ولا بما جئتم به ، ونسى هؤلاء الكفار أن الله لو أنزل ملائكة لجعلهم على صورة البشر حتى يألفهم الناس ، إذ لا يطيقون رؤية الملائكة فى صورهم الحقيقية ، وحينئذ يلتبس الأمر عليهم ، قال تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ »[1] .

وقولهم : (فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ) ليس إقرارا ولا اعترافاً منهم بإرسال الرسل وإنما هو من قبيل السخرية والتهكم ، نظيره ما قاله فرعون فى شأن موسى - عليه السلام - : « قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ »[2] .

أخرج البيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : قال أبو جهل والملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد فلولا التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فكلَّمهُ ثم أتانا ببيان عن أمره ؟ قال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما ، ولا يخفى علىّ إن كان كذلك ، فأتاه فقال له يا محمد : أأنت خير أم هاشم ؟ أأنت خير أم عبد المطلب ؟ فلم يجب رسول الله ﷺ قال : فيم تشتم آلهتنا

(١) سورة الأنعام الآية : ٩ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ٢٧ .

وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان بك الباءة[1] زوجناك عشر نسوة تختارهن من أى بنات قريش ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال ﷺ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ـ حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) فقرأ حتى بلغ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فأمسك عقبة على فيه ﷺ فأنشده الرحم أن يكف عنه ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قال أبوجهل : يامعشر قريش ، ما أرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وما ذلك إلا من حاجة أصابته ، انتقلوا بنا إليه ، فأتوه فقال أبو جهل : ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره ، فإن كنت فى حاجة جمعنا لك ما يغنيك عن محمد ، فغضب وأقسم بالله ـ تعالى ـ لايكلم محمدا أبدا وقال : لقد علمتم أنى أكثر قريش مالا ، ولكنى أتيته وقص عليهم القصة : فأصابنى بشىء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة قرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ـ حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) حتى (أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فأمسكت بفيه وناشدته الرحم فكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾)

(١) الرغبة فى النكاح والتزوج .

المفردات :

(فَاسْتَكْبَرُواْ) : فتعظموا وتعالوا .

(يَجْحَدُونَ) : ينكرون مع علمهم أنه الحق . (رِيحاً صَرْصَراً) :شديدة الحرارة من الصَّر- بفتح الصاد- بمعنى الحر ، وقيل غير ذلك : وسيأتى مزيد بيان فى التفسير .

(فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ) : فى أيام مشئومات عليهم ، لأنهم عذبوا فيها .

التفسير

١٥ ـ (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . .) الآية :

شروع فى تفصيل ما أعده الله -تعالى- لكل واحدة من الطائفتين من النكال والعذاب بعد أن أجمله ـ سبحانه ـ فى قوله تعالى :(فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) وبدأ الله ـ جل شأنه-بقصة عاد لأنهم أقدم زمانا ، أى : فأما عاد فتعالوا على من سواهم وتعظموا فى الأرض التى لاينبغى لأحد أن يتعظم فيها « فكلكم لآدم وآدم من تراب » كما أن نِعم الدنيا لاتدوم ولا تثبت على حال (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »[1] بالإضافة إلى أن مالدى الناس من صحة ومال وقوة إنما هو منحة الله وعطاؤه يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، فتعظُّمهم واستكبارُهم حقيق أن يقول الله عنه :(بِغَيْرِ الْحَقِّ) وقيل : تعظموا عن امتثال أمر الله -جل شأنه- وعن قبول ماجاءتهم به الرسل ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل دفعهم غرورهم بقوتهم وزَهْوهم بها إلى مايوحى وينبىء بتماديهم فى صلفهم (وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) استنكروا بقولهم هذا ، ورأوا أن ماهم عليه من شدة جدير أن يجعلهم يتعظمون على من سواهم .

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) :

أى : أغفل هؤلاء ولم يعلموا أن الله الذى خلقهم وبرأهم من العدم هو ـ سبحانه ـ أشد منهم قوة ، إذ ليس لديهم قدرة ذاتية من أنفسهم ، وأمَّا مالديهم من قدرة فإنما هو بإقدار الله لهم بمنحهم إياها أو بمتعهم ، فالله أقدر منهم ومن كل من عداهم ، وانتهى

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٤٠

الأمر بهؤلاء أنهم أنكروا دلائل قدرة الله ومعجزاته فى كونه ، والتى أظهرها — سبحانه — على أيدى رسله .

١٦ — (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً) :

أى : سلطنا عليهم ريحا شديدة الحرارة ، من الصَّر — بفتح الصاد — بمعنى الحر ، وقال ابن عباس وغيره : باردة تهلك بشدة بردها ، من الصِّرّ — بكسرها — وهو البرد الذى يَصِرّ أى : يجمع ظاهر الجلد ويقبضه ، وقال السدى وغيره : مُصَوِّتَةً من صر يصِر إذا صوّت .

وروى أنها كانت تحمل العير بأثقالها وأحمالها فترميهم بالبحر .

(فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ) وهى التى جاء ذكرها وبيانها فى قوله — تعالى — : « وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ »[1] أى : فى أيام مشئومات لأنهم عذبوا فيها ، فاليوم الواحد يوصف بالنحس والسعد بالنسبة إلى شخصه ، فيقال له : يوم سعد بالنسبة لمن تناله النعماء . ويقال له : يوم نحس بالنظر لمن تصيبه الضراء .. وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : الأيام كلها لله — تعالى — خلق بعضها نحوسا وبعضها سعودا (لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ليجرعهم فيها غصص هذا العذاب الذى يصيبهم بالخزى والذل والندم والهلاك ، فيجمع الله عليهم عذاب البدن مع آلام النفس وتحسرها وندمها ، ولات ساعة مندم (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ) أى : وللعذاب الذى ينالونه ويحيق بهم فى الآخرة أشد خِزْيا وذلاً ، إذ يكون على رءوس الأشهاد ، مع كونه شديد الإيلام .

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾)

(١) سورة الحاقة الآيتان : ٦ ، ٧ .

المفردات :

(فَهَدَيْنَاهُمْ) : فدللناهم وبينا لهم طريقى الضلالة والرشد .

(فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) : فآثروا ومالوا إلى الضلال وتركوا الطريق المستقيم .

(صَاعِقَةُ) : نار تنزل من السحاب فى رعد شديد ولاتصيب شيئا إلا أحرقته .

(الْهُونِ) : الهوان المخزى المذل المهين .

التفسير

بعد أن فصل عذاب عاد قوم هود أتى ببيان عذاب بعض الذين شاركوهم فى العصيان وتكذيب الرسل ، وهم ثمود قوم صالح فقال :

١٧ - (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ...) الآية :

أى : وأمّا ثمود فقد أوضحنا لهم على لسان رسولهم طريق الرشاد ودعوناهم إليه ، وأظهرنا لهم الآيات الكونية ، وأزلنا عن طريقهم كل ما يمنعهم من التبصر والإدراك ، (فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) أى : فآثروا واختاروا الضلالة على الهداية بمحض إرادتهم دون إكراه منه - سبحانه - على فعل ما يفعلون ، (فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) فأخذتهم واستأصلتهم داهية العذاب الذى يضيف إلى إيلامه الخزى والذل والمهانة لهم ، وقد عاقبهم الله بهذا العذاب جزاء ما اقترفوه من عقر الناقة التى أمروا بتركها تأكل فى أرض الله ونهوا عن أن يمسوها بسوء ، فضلا عما اكتسبوه من قبيح الذنب وفاحش الاعتقاد .

١٨ - (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) :

أى : أنقذنا الذين آمنوا بربهم وبما جاء به رسولهم صالح - عليه السلام - ، واتقوا الله فأطاعوه ، وابتعدوا عن المعاصى فلم يقترفوها ، نَجَّاهم وميزهم عن الكفار ، فلم يُنزِل بهم ما أنزله بهؤلاء الذين أجرموا من عذاب وعقاب ، بل جعلهم ربهم فى نجوة ومكانة رفيعة لاينالهم فيها هوان .

وهذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ووعد له بأن الله سيفعل بمؤمنى قومه وكافريهم مافعله بهؤلاء ، فينجى مؤمنيهم ويهلك كافريهم إن ظلوا على كفرهم .

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

المفـردات :

(يُوزَعُونَ) : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ، وقيل : يساقون ويدفعون إلى جهنم .

التفسير

١٩ - (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النَّارِ . . . .) الآية :

هذا شروع فى بيان عقوبة عاد وثمود فى الدار الآخرة بعد أن بين - سبحانه - عقوبتهم فى الدنيا ، أى : واذكر يا - محمد - يوم يجمع الله من القبور أعداءه الذين جحدوا به ، وأشركوا معه سواه ، وكذبوا رسله ، وآذوهم واضطهدوا من آمن بهم ، ونالوهم بألوان العذاب ، اذكر لقومك - أيها الرسول - يوم يجمع الله أعداءه هؤلاء للجزاء .

(فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى : يحبس ويمنع أولهم عن السير والمشى ، فيبقى فى مكانه لايغادره حتى يأتى آخرهم ، فيجتمعوا فى صعيد واحد ، ليدخلوا جهنم مجتمعين ، أو معناه : أنه - سبحانه - يسوقهم ويدفعهم إلى النار فى إذلال وإهانة لهم بعد حسابهم .

والقائمون بذلك هم الملائكة بأمر الله كما يظهر من قوله-تعالى-: «احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ • مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ»[1].

٢٠ - (حَتَّىٰٓ إِذَا مَاجَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

أى : حتى إذا ماقربوا منها فى ساحة الحساب وسئلوا عن آثامهم وذنوبهم فأنكروا حصول ذلك منهم ، عندئذ تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بالذى كانوا يعملونه ويحدثونه من الجرائم والآثام فى الدنيا ، والمراد من الجلود هنا هو ظاهر البشرة ،ولفظ (مَا) فى قوله - تعالى - : (إِذَا مَاجَآءُوهَا) لتوكيد مجيئهم[2] وأنه لابد أن تحصل تلك بشهادة من الأسماع والأبصار والجلود عليهم .

٢١ - (وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا . . . .) الآية :

وسألوا جلودهم سؤال إنكار وتقريع وتوبيخ : ماحملكم على أن تشهدوا علينا ؟ وعنكم كنا نناضل (قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء لاينطق ولايتكلم - أنطقنا- لنشهد عليكم بالحق ، فهو قادر على ذلك ، فقد خلقكم أول مرة من تراب ثم من نطف ، وإليه ترجعون ، فهذه الشهادة حق الله .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : « كنا عندَ رسولِ الله ﷺ فَضحِكَ ، فقال : «هل تَدرونَ مِمَّ أَضحكُ ؟» قلْنا : اللهُ ورسولُه أعلمُ ، قال : « من مخاطبةِ العبد ربَّهُ ، يقول : ألم تُجِرْنِى مِن الظلمِ ؟ قال : يقولُ : بلى ، قال فيقولُ : فإنِى لَا أُجيزُ على نفْسِى إلا شاهداً مِنِّى ، قال يقولُ : كفَى بنفسِك اليومَ شهيدا ، وبالكرامِ الكاتبين شُهودا ، قال : فيختَم على فِيهِ فَيُقال لأَركانه : انطِقِى ، فتنطق بأعماله ، قال : ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام ، قال فيقول : بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً ، فعنْكُنَّ كُنتُ أُناضِل » .

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٢٢ ، ٢٣.

(٢) فليست بنافية .

واختلف فى كيفية الشهادة من الجوارح والجلود على ثلاثة أقوال ، أحدها : أن الله يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على مايعرفه .

الثانى : أن الله - تعالى- يخلق فى تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعانى كما خلق الكلام فى الشجرة التى نودى منها موسى - عليه السلام - .

الثالث : أن يظهر الله - تعالى- فى الأعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى شهودا .

(وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(تَسْتَتِرُونَ) : تستخفون .

(أَرْدَاكُمْ) : أهلككم .

(مَثْوًى) : إقامة دائمة .

(وَإِن يَسْتَعْتِبُوا) : وإن يسألوا الرضا من الله -تعالى- ، أو : وإن يعتذروا .

(فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ) : فما هم من المجابين إلى مايسألون .

التفسير

٢٢ - (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أى : ماكان استتارهم واستخفاؤهم عندما كانوا يقارفون الموبقات والأعمال القبيحة خوفا من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ، ولكن كان هذا التستر والاختفاء لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لايعلم كثيرا من الأعمال التى يقدمون عليها فى خفية واستتار .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر علىَّ : ثقفيان وقرشى ،فقال أحدهم : أترون الله يسمع ماتقولون ، فقال الرجلان : إذا سمعنا أصواتنا سمع وإلَّا لم يسمع ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

٢٣ - (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ) :

هذا نص صريح فى أن من ظن بالله - تعالى - أنه يخرج شىء من المعلومات عن علمه - سبحانه - فإنه يكون من الهالكين الخاسرين « الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ »[1] .

قيل : والظن قسمان : ظن حسن بالله -تعالى - وظن فاسد ، وأما الظن الحسن فهو أن يظن به - سبحانه - الرحمة والفضل ،قال ﷺ حكاية عن الله - عز وجل - :

« أنا عندَ ظنِّ عبدِى بِى » وقال-عليه الصلاة والسلام- : « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بِالله » والظن الفاسد : هو أن يظن بِالله أنه يَعزُبُ ويغيبُ عن علمه بعض هذه الأحوال ، وقال قتادة : الظن نوعان : ظنٌّ مُنْجٍ ، وظن مُرْدٍ . فالمنجى قوله :

---

(١) سورة الزمر من الآية : ١٥

« إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[1] وأما الظن المردى فهو قوله — تعالى — : (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ) .

٢٤ — (فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ . . . .) الآية :

أى : فإن يمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك ، وتكون النار لهم محل ثواء وإقامة دائمة لا انفكاك لهم منها ؛ فلا يجدى صبرهم .

(وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ) وإن يطلبوا الرضا من الله فماهم من المجابين إليه .

وقال الضحاك : المراد وإن يعتذروا فماهم من المعذورين .

* (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ) أى : وأتحناهم لهم ، وجئناهم بهم ، يقال : قيض الله له رزقا ، أى :جاءه به وأتاحه له كما كان يطلب ، والقرناء :الأصحاب ، مِنْ قرن الشىء بالشىء :وصله به وأصحبه إياه ، وهو من بابىْ : نصر ، وضرب .

(فَزَيَّنُوا لَهُمْ) : فحسنوا لهم .

(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) :من أمور الدنيا .

(وَمَا خَلْفَهُمْ) : من أمور الآخرة ، حيث حسنوا لهم التكذيب بها .

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : وجب عليهم الوعيد بالعذاب .

(خَلَتْ) : مضت .

---

(١) سورة الحاقة الآية : ٢٠ .

التفسير

٢٥ – (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة سوء مصير الكافرين فى الآخرة ، جاءت هذه الآية لتبين السبب فيما وصلوا إليه .

والله –تعالى– جعل للناس فى الدنيا قرناء من الجن والإنس يصحبونهم فى حياتهم ، وهؤلاء القرناء قد يكونون مؤمنين صالحين فيحضونهم على الخير ، وقد يكونون غير ذلك فيحملونهم على الشر .

وقد رزق الله الإنسان عقلا يميز به بين الخبيث والطيب ، وأعانه على هذا التمييز بشرع أنزله إليه على لسان نبى من الأنبياء ، فمن واجبه أن يستعمل عقله فى حاضره ومستقبله ، وأن يميز بين الخبيث والطيب ، والنافع والضار ، فإذا زين له قرينه الخير قبله ، وإذا زين له قرينه الشر رفضه .

ومن الناس من فسدت طباعهم لسوء تربيتهم ، فاختاروا قرناءهم من الإنس على منهجهم من السوء والشر ، فزينوا لهم الباطل والشر ، وترك الحق والخير ، فأطاعوهم فكانوا من الخاسرين .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة للتوعية من القرناء والأصحاب ، فلا يقبلون منهم سوى الدعاء إلى الخير ، ويرفضون منهم غيره حتى لايكونوا من الخاسرين ، فى جملة من حقت عليهم كلمة العذاب ، وهى قوله –تعالى– لإبليس : « فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ[1] » .

والمعنى الإجمالى للآية : وأتحنا للكافرين وأصحبناهم بقرناء السوء من الجن والإنس لسوء نشأتهم ، فزينوا لهم مابين أيديهم من الحياة الدنيا ، وما فيها من حلال وحرام

---

(١) سورة ص ، من الآية : ٨٤ ، والآية : ٨٥

وزينوا لهم ماخلفهم من إهمال شئون الآخرة ، حيث دعوهم إلى التكذيب بها - كما قال مجاهد - ووجب عليهم الوعيد بعذاب الكافرين ، فى جملة أمم كافرة قد مضت من قبلهم ، إنهم كانوا خاسرين ، حيث اشتروا العذاب الدائم ، وباعوا النعيم المقيم .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ) : مشركو مكة .

(لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ) : لاتأخذوا بهذا القرآن ، وافعلوا الباطل فيه ، مِنْ لَغَا :قال باطلا ، وبابه :عَدَا وصَدِىَ - أى :عَطِش.(يَجْحَدُونَ) :يكفرون وينكرون .

التفسير

٢٦- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَاتَسْمَعُواْ لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) :

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن مصير مَن زين له قرينه الدنيا وترك الآخرة ، جاءت هذه الآية ومابعدها للحديث عن حال مشركى مكة ومآلهم ، وقد أشارت الآية إلى أن القرآن كان عدوهم اللدود ، لأنه شديد التأثير على النفوس؛فلهذا تواصوا

باللغو فيه ليحولوا بينه وبين أسماع الناس، خشية أن يحملهم على الإيمان بما فيه من الآيات البينات ، والعظات المؤثرات ، والأسلوب الفريد .

والمعنى : وقال الذين كفروا من أهل مكة : لاتسمعوا لهذا القرآن وافعلوا الباطل فيه من الصفير والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصير لغوا ، ولا يستفيد به أحد ، وقال الضحاك : أكثروا الكلام ليختلط عليه مايقول : ا هـ .

(لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) محمدا على قراءته ، فلا يظهر مايقوله ، ولايستميل القلوب .

قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لايدرى مايقول : ا هـ . كذلك كانوا يفعلون ، ولكن الله أتم دينه ومكّن لنبيه ، وبدل المؤمنين من بعد خوفهم أمنا «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»[1] .

٢٧ ـ (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) :

وعيد لأولئك الكافرين اللاغين فى القرآن ومن حملوهم على اللغو .

والمعنى : فوالله لنذيقن الذين كفروا ولَغَوْا فى القرآن وحرضوا عليه عذابا شديدا فى الدنيا بنصرك عليهم، ولنجزينهم فى الآخرة على سيئات أعمالهم التى هى أسوأ الأعمال .

أما الأعمال الحسنة : من إغاثة الملهوف وصلة الرحم وقِرَى الأضياف ونحوها، فلا يجزون عليها فى الآخرة ، لأنهم أحبطوها بالكفر ، لقوله ـ تعالى ـ : «وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا»[2] .

٢٨ ـ (ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ) :

أى : ماذكر من الجزاء الأخروى السيء ، جزاء أعده الله لأعدائه ، هو النار لهم فيها دار الخلد ، لايموتون ، ولاهم منها يخرجون ، جزاء بما كانوا بآياتنا يكفرون .

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٢١

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣

٢٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) :

وقال الكافرون وهم فى النار : ياربنا أرنا اللَّذَين أضلانا وحملانا على الكفر والمعاصى من جنسى الجن والإنس ، ندسهما بأقدامنا انتقاما منهما ، ليكونا من الأسفلين ذُلاًّ ومهانة ، وفى الدرك الأسفل من النار مكانا ومُقَامًا .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ) : أقروا بربوبيته وحده .

(ثُمَّ اسْتَقَامُواْ) : عملوا الصالحات .

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ) : عند الموت ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه .

(نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى : نحن الذين توليناكم فيها .

(وَفِي الْآخِرَةِ) : ونحن الذين نواليكم فى الآخرة حتى تدخلوا الجنة .

(وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ) : ولكم فيها ماتطلبون - مأخوذ من الدعاء بمعنى الطلب .

التفسير

٣٠ - (إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَاتَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) :

هذه الآية شروع فى بيان حسن أحوال المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، بعد بيان سوء أحوال الكافرين فيهما .

والمعنى : إن الذين اعترفوا بربوبية الله وحده فقالوا : ربنا الله ليس لنا إله سواه ، ثم استقاموا على هذا الاعتراف ، فلم يروغوا رَوَغَان الثعالب ، وأتبعوا هذا الاعتراف بالعمل الصالح ، فلازموا الطاعات ، وتجنبوا السيئات ، حتى لاتزل أقدامهم عن طريق مربوبيتهم وعبوديتهم لربهم - إن هؤلاء الصالحين - تتنزل عليهم الملائكة وهم لايرونهم ، يلهمونهم الخير ، وينفرونهم من الشر ، ويمدونهم فيما يعن لهم من أمور الدنيا والآخرة بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن ، فى مقابل مايفعله قرناء السوء مع الكفرة من إغوائهم ودفعهم للمعاصى .

وهؤلاء الملائكة يصحبونهم فى حياتهم وعند مماتهم وبعثهم ، قائلين لهم : لاتخافوا من مكروه يقع بكم ، ولا تحزنوا على شيء فاتكم ، أو لاتخافوا ردَّ حسناتكم فهى مقبولة ، ولاتحزنوا على ذنوبكم فهى مغفورة .

والمقصود إخبارهم بأن الله كتب لهم الأمن من كل غم بسبب صلاحهم ، ولا يقتصرون على ذلك ، بل يقولون لهم : أبشروا بالجنة التى كنتم توعدونها على ألسنة المرسلين ولعل هذه البشارة عند الموت أو البعث من القبور ، ولا مانع من أن تكون إلهاما فى الحياة الدنيا ، وفقا لقوله -تعالى- : «وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً»[1] .

روى الإمام أحمد بسنده ، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، حدثنى بأمر أعتصم به ، قال : « قُل ربىَ الله ثمّ استَقِمْ » قلت يا رسول الله : ما أكثَر ما تخاف علىَّ ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه ثم قال : « هذا » أى : أخافُ عليك لسانَك .

(١) سورة طه ، الآية : ١١٢

٣١ - (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) :

هذه الآية من تتمة بشارتهم فى الدنيا ، يقولون لهم : نحن أعوانكم فى أموركم فى الحياة الدنيا ، نلهمكم الحق ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، وأولياؤكم فى الآخرة نمدكم بالشفاعة ، ونتلقاكم بالكرامة ، يقولون لهم ذلك فى مقابل ما بين الكفرة وقرنائهم ، من الإغواء فى الدنيا والجدل والخصام فى الآخرة - وقد مر بيانه-ويقولون لهم أيضاً : لكم فى الآخرة ما تشتهى أنفسكم من أنواع المتع والملذات ولكم ما تطلبون وتتمنون من الأمور الروحانية وسواها.

وقيل المراد بما تدعون : ما تقولون إنه لكم فهو لكم بحكم ربكم .

٣٢ - (نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ) :

المشهور أن النُّزُلَ ما يُهَيَّأُ للنزيل - أى :الضيف - ليأكله حين نزوله ، والمعنى : أن هذا النعيم جعله الله ثواباً لهم من غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بعباده حيث يعطى الجزيل فى مقابل العمل القليل .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ) : فى الجزاء ، و(لَا) : الثانية تأكيد للأُولى .

(ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) : ادفع السيئة بالخصلة التى هى أحسن فى دفعها .

(وَلِىٌّ حَمِيمٌ) : صديق مشفق .

(وَمَا يُلَقَّاهَا) : وما يتخلق بها .

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) : وإمَّا يأْتينك منه وسوسة بالشر .

(فَاسْتَعِذْ بِاللهِ) : فلا تطعه معتمدًا على الله .

التفسير

٣٣ ـ (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

ولا يوجد أحسن قولا ممن دعا إلى توحيد الله وطاعته ، وعمل عملا صالحاً وقال : إننى من المسلمين .: ليكون قوله مطابقاً لفعله . حتى يكون قدوة لغيره ، وقد نهانا الله ـ تعالى ـ عن المخالفة بين القول والعمل فقال : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَالَا تَفْعَلُونَ »[1] .

وكان زيد بن على ـ رضى الله عنهما ـ يفسر الدعاء إلى الله باللسان وباليد . فكان يدعو إلى الإسلام ويجاهد ، قال الآلوسى : ولعل هذا ـ والله تعالى أعلم ـ هو الذى حمله على الخروج بالسيف على بعض الظلمة من ملوك بنى أُمية ، وكان زيد هذا عالماً بكتاب الله ـ تعالى ـ وله تفسير ألقاه على بعض النقلة عنه ، وهو فى حبس هشام بن عبد الملك ؛ وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظ وافر ؛ ويقال : إنه كان إذا تناظر مع أخيه محمد الباقر ، اجتمع الناس بالمحابر ، يكتبون ما يصدر عنهما من العلم ـ رحمهما الله تعالى ، ورضى عنهما ـ : ا هـ .

---

(١) سورة الصف ، الآيتان : ٢ ، ٣

٣٤ - ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ :

استئناف لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد ، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وربه - عز وجل - .

وفى الآية ترغيب لرسول الله ﷺ فى الصبر على أذية المشركين ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان .

ومعنى الآية : ولاتستوى الخصلة الحسنة والخصلة السيئة فى الآثار والأحكام ، فإذا أساء إليك مسىء فلا تقابله بمثل ما صنع ، بل قابله بما هو خير وأفضل من سواه من أساليب المعروف ، فالفحش تقابله بالحلم والصبر ، أو تقول له :إن كنتَ صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك ، والغلظة تقابلها بالمداراة ، والإيذاء تقابله بالإحسان ، إلى غير ذلك من المتقابلات ، فإن فعلت ذلك صار عدوك المُشَاقُّ مثل الصديق المشفق ، بل قد تزول العداوة وتحل محلها الصداقة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

إن العداوة تستحيل مودَّة بتدارك الهفوات بالحسنات

والآية - على ما قيل - نزلت فى أبى سفيان بن حرب . كان عدوًّا مبيناً لرسول الله ﷺ فصار عند أهل السنة وليا مصافيا - ذكره الآلوسى - وذلك لأن الرسول ﷺ لما فتح مكة عفا عنه ، وقال : « مَنْ دخلَ دارَ أبى سُفيانَ فهوَ آمِن » .

ومن الناس من لا تصلح معه الملاينة إذ يحسبها ضعفاً ويتمادى فى سيئاته ، فمثل هذا تستعمل معه المخاشنة بعد فشل استعمال الملاينة ، وذلك فى حدود الضوابط الشرعية .

٣٥ - ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ :

وما يُؤتى خَصْلةَ دفع السيئة بالحسنة إلا الذين شأْنهم الصبر والحلم ، وما يؤتاها إلا ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس - كما روى عن ابن عباس - أو ذو حظ عظيم من الثواب - كما قال قتادة - .

٣٦ - ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ :

النزغُ : النخس بطرف قضيب أو نحوه بقوة ، استعير لوسوسة الشيطان الباعثة على الشر، ولفظ « ما » فى « إمَّا » صلة للتأكيد ،والأصل : وإن ينزغنك فزيدت (ما) وأُدغمت فى النون.

والمعنى : وإمَّا يصرفنك الشيطان عن دفع السيئة بالحسنة ، حاملا لك على مقابلة السيئة بمثلها أو بأكثر منها ، فاستعذ بالله من شره ولاتطعه ، إنه – تعالى – سميع لاستعاذتك ، عليم بحسن نيتك فيعصمك ويعينك على صبرك .

وقيل إن المعنى : سميع لقول من آذاك ، عليم بفعله ، فينتقم منه مغنيا إياك عن هذا الانتقام .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ) : المراد بهم الملائكة .

(بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) المقصود بهما : الدوام ، فإن الملائكة ليس عندهم ليل ونهار .

(لَا يَسْأَمُونَ) : لا يملُّون .

(خَاشِعَةً) : يابسة متطامنة ، مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ، وقال القرطبى : الأرض الخاشعة الغبراء التى تنبت .

(اهْتَزَّتْ) : تحركت بالنبات .

(وَرَبَتْ) : انتفخت .

التفسير

٣٧ – (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) :

ومن دلائل وجود الله – تعالى – وقدرته ، ووحدانيته وحكمته ، وكمال صفاته ، أنك ترى الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، وتعاقبهما بانتظام من غير فتور ، وتداخل بعضهما فى بعض ، فيزيد النهار وينقص الليل ، أو يزيد الليل وينقص النهار ، ويترتب على ذلك وجود الفصول الأربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء ، ومعرفة عدد السنين والحساب .

ومن دلائله – تعالى – الشمس بنورها وأشعتها الساخنة الساطعة ، والقمر بضوئه وأشعته الخافتة وتنقلهما فى مداراتهما ومنازلهما بانتظام ، فينشأ عن تنقل الشمس فيها الفصول الأربعة وحساباتها الفلكية ، وينشأ عن تنقل القمر فيها زيادة ضوئه ونقصانه ، ومعرفة مبدأ شهره ونهايته ، كما أن لكليهما أثرًا بالغاً فى نمو الزرع وحياة الحيوان ، ومعرفة أوقات العبادات والمعاملات .

ولما كانت الشمس والقمر أظهر الكواكب بالنسبة لأهل الأرض ، وكان بعض الناس يسجدون لهما تقربًا إلى الله بعبادتهما ، أو إيماناً بألوهيتهما – لما كان الأمر كذلك – نهى الله عباده عن السجود لهما ، لأن الله – تعالى – خالقهما ، وهما من دلائل وجوده وكمال صفاته ، فقال-سبحانه-: (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) .

فالله لايحتاج إلى وسيط فى عبادته ، وهذا الوسيط يبعدهم عن الله ولا يقربهم منه ، وينسيهم الله ، فينسبون له النفع والضر ، والخير والشر ، فمن كان يعبد الله فلا يشرك معه أحدًا فى عبادته ، فهو أقرب إليه من حبل الوريد ، ولا يغفر أن يشرك به .

ويلاحظ أن فى المجرات ملايين الشموس والأقمار وسائر الكواكب ، وفيها أكبر من شمسنا وقمرنا وأرضنا ، ولكن الله خاطب عباده بما تقع عليه عيونهم وبما يعبدونه .

والضمير فى « خلقهن » يرجع إلى الليل والنهار والشمس والقمر ، وتأنيث الضمير الراجع عليها مع أن غالبها مذكر ، باعتبار أنها آيات ، ولأن كل جمع يصح تأنيث ضميره ، قال الناظم :

لا أبالى بجمعهم كل جمع مؤنث

وهذه الآية موضع سجدة بلا خلاف ، واختلفوا فى موضع السجود منها ، فقال مالك : موضعه (إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) لأنه متصل بالأمر ، وقال ابن وهب والشافعى : موضعه (وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) فى الآية التالية ، لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال ، وبه قال أبو حنيفة .

واختلف النقل عن الصحابة على هذا النحو ، قال ابن العربى : والأمر قريب : انتهى بتصرف يسير من القرطبى .

٣٨ - (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) :

فإن تَعَاظَمَ الكفار عن أن يسجدوا لله وحده ، فلا تعبأ بهم ، فإن الملائكة الذين هم فى حضرة القدس الإلهى يسبحون له دائماً ، وهم لا يملون التسبيح .

٣٩ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

الخطاب هنا لكل عاقل .

ومعنى الآية : ومن دلائل قدرة الله -تعالى- على إحياء الموتى أنك ترى الأرض هامدة يابسة لانبات فيها ، فإذا أنزل الله الماء عليها تحركت بالنبات حين يبدو من بذوره ، وارتفعت به بعد خروجه حيث يزداد طولا وعرضاً ، ويصير أشجاراً وزروعا تسر الناظرين ، وتطعم الآكلين ، وتفكه المتفكهين ، بعد أن كانت ميتة هامدة ، إن الذى أحياها على هذا النحو العجيب لمحي الموتى ، وباعث من فى القبور ، كما أحياها بعد أن كانت ميتة ، إنه على كل شىء قدير ، فآمنوا بالبعث والنشور للإنسان ، فما ترونه فى النبات والأشجار بعث ونشور لهما .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(يُلْحِدُونَ فِيٓ آيَاتِنَا) : يميلون عن الحق فيها ،والإلحاد :الميل والعدول ،والمراد بالآيات هنا القرآن .

(كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ) : كفروا بالقرآن ، فإن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام ، ويطلق الذكر على الشرف أيضاً ، والقرآن شرف للعرب ، حيث جاءت المعجزة المحمدية من لغتهم ، وحيث بدأ به عموم الرسالة من بينهم .

(كِتَابٌ عَزِيزٌ) : ليس له نظير ،أو : منيع لا تتأتى معارضته ،وأصل العز :حالة مانعة للإنسان عن أن يُغلب ، أو غالب للكتب حيث نسخ ما قبله ، وقال ابن عباس : كريم على الله تعالى .

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) :المراد :أنه لا يأتيه الباطل من جميع جهاته .

(حَكِيمٍ حَمِيدٍ) الحكيم : من يضع الشيء في موضعه ، والحميد :المحمود ، وخبر إن الذين كفروا هو جملة « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » أى :لا يأتيه الباطل منهم– أى : من الذين كفروا. قاله أبو حيان ، أو هو مقدر ، وتقديره خاسرون ،والخبر يحذف إذا دل عليه المقام ، وقدره

عمرو بن عبيد بقوله : كفروا به . بعد قوله لما جاءهم ، أى :إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به فى حال أنه كتاب عزيز . . . إلخ .

التفسير

٤٠ – (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ آيَاتِنَا لَايَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

إن الذين يميلون عن الحق فى شأن آياتنا ، فيكذبون القرآن ، ويصفرون ويصفقون عند قراءة النبى ﷺ له ، ويصفونه بالكذب وبالسحر وبالشعر وبأساطير الأولين – إن هؤلاءِ الملحدين – لا يخفون علينا ، فنحن نعلمهم ونعلم إلحادهم ، وسوف نجازيهم بالنار على هذا الإلحاد .

(أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّارِ) جزاء له على إلحاده خَيْرٌ (أَم مَّن يَأْتِيٓ آمِنًا) منها يوم القيامة ، جزاء له على إيمانه ، ولا يقتصر أمرهم على ذلك ، بل يدخلون الجنة خالدين فيها أبدا .

ثم هدد الله الملحدين فقال :(اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فلا تخفون عليه « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ »[1] .

٤١ ، ٤٢ –(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) :

إن الذين كفروا بالقرآن حين جاءهم من غير مُهلة يفكرون فيها فى أمره – إن هؤلاء – كفروا به وإنه لكتاب عزيز منيع لاتتأتى معارضته،ولا يأتيه الباطل من جميع جهاته لغة ، وعقيدة ، وتشريعاً ، وقصصاً ، وانسجاماً ،وترتيلا ، فهو فى هذه قمة لاترام ولاتنال ، منزّل من إله (حَكِيمٍ) يأتى بالمعجزات التى لا يمكن معارضتها تأييدًا لرسله ، ويضع الشىء فى موضعه (حَمِيدٍ) محمود على ما أسدى من مختلف أنواع النعم ، التى منها تنزيل هذا الكتاب – محمود على ذلك – بلسان المقال أو بلسان الحال ، من كل مخلوق نالته نعمه – سبحانه – ، وإذا كان القرآن بهذه المثابة ، فكيف يكفر به الكافرون ويجحده الجاحدون؟

٤٣ –(مَايُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُوعِقَابٍ أَلِيمٍ)[2] :

---

(١) سورة الشعراء ، من الآية : ٢٢٧

(٢) «إن ربك لذو مغفرة» تعليل لما فهم من السياق من الأمر بالصبر ، وقيل:هى مقول القول الثانى ، مقصود لفظها لتكون نائب فاعل لقيل .

فى هذه الآية تسلية للنبى ﷺ عما يصيبه من أذية كفار مكة ، من طعنهم فى القرآن ووصفه ﷺ بالسحر ، والشعر ، والكذب ، والجنون .

والمعنى : ما يقال لك ــ أيها الرسول ــ من الكفار ، إلا مثل ما قيل للرسل قبلك من أقوامهم كما قال ــ تعالى ــ : « كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ »(١) .

فاصبر على مقالاتهم كما صبر الرسل من قبلك على مقالات قومهم ، فلا عليك من تكذيبهم ، (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) لأوليائه ، (وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) لأعدائهم ، فينصر أولياءه وينتقم من أعدائهم .

ويصح أن يكون المعنى : إن ربك لذو مغفرة لمن آمن من قومك ، وذو عقاب أليم لمن بقى منهم على كفره .

ويصح أن يكون المعنى : ما يقال لك من الله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، وهو : (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) فتلك المقالة لمواساتك ومواساة المرسلين قبلك ، فاصبر كما صبروا فسينصرك الله كما نصرهم ، ويعاقب أعداءك كما عاقب أعداءهم .

(وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾)

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٢ .

المفـردات :

(أَعْجَمِيًّا) : بلغة العجم .

(لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) : هلَّا بينت بلسان نفقهه .

(أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) : أيصح أن يأتينا كتاب أعجمى والمخاطب به عربى ؟ والعرب يقولون عمن يخالف لغتهم : أعجمى[1]

(فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ) : صمم فلايسمعونه .

(وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى) : فلايبصرون هداه .

(أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) : هؤلاء كأنما ينادون من مكان بعيد فلايسمعون لبعده ، فاختلف فيه بالتصديق والتكذيب .

(لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) : لفى شك يقتضى الاضطراب والقلق .

التفسير

٤٤ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ...) الآية :

لمـا ذكر الله - تعالى - القرآن وبلاغته وفصاحته ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون - لمَّا ذكر ذلك - نبه بهذه الآية على أن كفرهم به كفر عناد .

ومعنى الآية : ولو جعلنا القرآن بلغة غير لغة العرب ، فنزلناه على بعض الأعجمين بلغته ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ، ولقالوا : لولا بينت آياته بلغتنا حتى نفهمه أيصح أن يكون قرآننا أو رسولنا أعجميا ، والمرسل إليه عربى ؟ فلهذا أنزله الله بلغتهم العربية ليفهموه ويعقلوه ويتدبروا آياته .

وعقب ذلك ببيان أن الناس بالنسبة للقرآن قسمان : مؤمنون يهتدون به ، وكافرون

---

(١) وقال القرطبى : والعجمى الذى ليس من العرب - فصيحاً كان أو غير فصيح - والأعجمى : الذى لا يفصح من العرب أو من العجم .

يعرضون عنه ، وذلك فى قوله : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) :

ومعناه : قل-أيها الرسول-لهؤلاء المعاندين : القرآن للذين آمنوا به هدى وشفاء من الشك والعلل ، لصفاء قلوبهم ، ونقاء عقولهم ، وبعد نظرهم ، وهو للذين كفروا بعيد عن قلوبهم ، فهم لذلك لا يسمعونه ، كأنهم صم لا يسمعونه ، فلهذا تواصوا بعدم سماعه واللغو فيه ، كما قال-تعالى-فى هذه السورة : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) .

وهم يبعدون عن النظر فيه ، كأنهم عمى لا يبصرون ، كأن من يدعوهم إلى الحق يناديهم من مكان بعيد ، لا يصل منه صوته إليهم ، لصممهم المصنوع ، ولا يرونه لتعاميهم عن رؤيته .

٤٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) :

فى هذه الآية تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - عن حزنه لاختلاف قريش على القرآن ما بين مكذب ومصدق له .

والمعنى : وبالله لقد آتينا موسى كتاب التوراة ، فاختلف فيه قومه ما بين مكذب ، ومصدق ، فلا تحزن على اختلاف قومك على القرآن ، فتلك عادة قديمة فى الأمم ، ولولا كلمة سبقت من ربك فى حق أمتك ، وهى العدة بتأخير عذاب المكذبين منهم إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة - لولا ذلك - لاستأصلهم بالعذاب كما استأصل المكذبين قبلهم وإن كفار قومك لفى شك من القرآن موقع فى القلق والاضطراب .

٤٦ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) :

من عمل صالحًا بالإيمان بالكتب السماوية والعمل بموجبها فلنفسه نفعه لا لغيره ، ومن أساء بالكفر والعصيان فعلى نفسه ضره لا على غيره ، وما ربك بظلام للعبيد ، فلا يعذب أحدًا بغير ذنب .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٥/٢س ١٩٨٧ - ٢٥٫٠٠٤